

الكتاب العربي السعودي ٧٨

أحمد السباعي

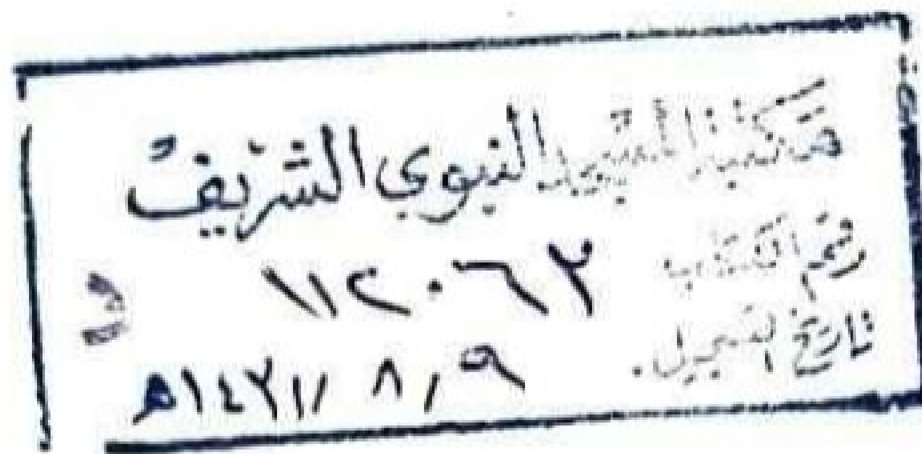
أيامي

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

الكتاب العربي السعودي ٧٨

أحمد السباعي





أيامي

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية





أيامي

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا

صدق الله العظيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ، ٥٤٥٥ - هاتف ، ٦٤٤٤٤٤٤

الإهداء

إلى :

من جهل أثر التربية العالية في إعداد الجيل !!

إلى :

من ظن النجاح في أساليبها القاسية .

أهدي كتابي

إنها « أيامي »

قدمتها في الطبعة الأولى والثانية تحت اسم :

« أبو زامل » .

كنت اردتها رمزية تمثل بعض فصولها جانبا من حياتى وتعطى بجوانبها الأخرى صورا من حياة الجيل الذى عشته .

ولكنى رأيت اليوم وفي الطبعة الجديدة ان اتوسع فيما يلم بحياتي إلى جانب ماعرف من سمات الجيل فتعين عليّ أن انسى ابا زامل واتقدم إلى القارىء بقصة « أيامى » .

في الكتّاب

سماني أبي « أحمد » ودللتنى أمى فكانت تنادينى « احمد حماده » وكانت اغنيتها الدائمة وهي ترقصنى - « أحمد حماده لب القلاده أمه تحبه وأبوه زياده » . ولا أزال إلى اليوم أذكر أني كنت دلوعتها كما اذكر كلمات الاغنية التى ظلت تدللنى بها إلى الايام الأولى التى كنت ادلج فيها إلى الكُتاب .

وشاركها أبي فى تدليل طفولتى الأولى لأنه رزق بي في سن اليأس ولعله عقد على رأسى آلاف الآمال والاماني .

ودرج بي إلى الكتاب في زقاق الشيش بجوار المدعى ، ولم يتركنى حتى أضاف إلى جعل الفتوح قرشا زائدا للفقيه ، ورجاه أن يعنى بي ، وألا تأخذه خشية في تربيتى .. « فاللحم لك ياسيدنا (يعنى لحمى أنا) والعظم لى .. أنت كسر ياسيدنا وأنا أجبر » ولم ينس شأن العريف فقد كانت للعرفاء في كتاتيبنا صولة ، وكان أحدهم لا يتسامح في خدود دولته مع الصبيان الا لمن يعترف بحقوقه في الكتاب ويعرف كيف يسترضيه ، ويقدم (هللاته) القليلة التى ينفحها اياه في كل صباح والده ليشترى بثمنها من بضاعته الفجة (فوفلة جنجاوى) واحدة .. أو قطعة من (طبطاب الجنة) وكلتاهما نوع من الدقيق المحمر بمسحوق السكر .

لم ينس أبي شأن العريف فقد أسر بما أرضى كبرياءه ، ودس إلى جيبه ما أطلق لسانه : (روح ياعم صالح . الولد ولد سيدنا .. وأنا هنا ما أشوفه الا زى اخويه الصغير) .

ولقد كان عند وعده فقد شافنى بما يشاف به الأخ الصغير الذى سلبت ارادته ، ومنح قياده إلى وصى يعرف كيف يعد هللاته القليلة التى يصطحبها كل صباح ، ويتولى حجزها لقاء (فوفلة) أو قطعة من (طبطاب الجنة) .

أما فيا عدا ذلك فقد كان يكفيه أن يضيفنى الى (بشكة) من أندادى

المبتدئين ، وأن يهيب بنا لنحاكيه فيما يقول ، ونردد حروفه التى يلفظها (أليف لاشيون عليها ٠٠ والباء واحدة من تحتيها[١] في نغم مرتل وأصوات ممدودة عالية ٠

وكان أبي قد حفل بما يلزمنى للكتاب قبل دخولى اليه فاشترى لى لوحا كانوا يعدونه كخشبة مربعة الجوانب يزين رأسها مدرجان ينتهيان إلى رأس كعرائس الخشب يثقبونه ويربطون به خيطا متينا يحمله الصبى فى يده ، أو يلوح به اللوح إذا شاء العبث ٠

ولم ينس أن يزودني ببعض (المضر) الذى كانوا يذيبونه بالماء ويمسحون ماكتبوا فى الالواح ليستأنفوا كتابة أخرى كما لم ينس أن يزودني بجزء (عم) ٠ وكانوا يطبعونه على قاعدة يسمونها بغدادية ، ويستفتحونه بحروف الهجاء ٠ والأبجدية وجميع مايتدرج فيه الطفل لينتهى إلى قراءة الفاتحة ٠ ثم ينتقل إلى باقي السور ليختمها بسورة (عم يتساءلون) ٠

ولعل أبي كان يتخيل لفرط تشوقه أن (أفك الحرف) في أقصر مدة يستطيعها حزم الفقيه الذى وهب له لحمى ، وأمره أن يكسر عظمي وكانت ثقته في عريفى بالغة الخطورة ٠

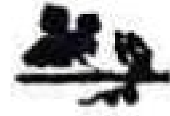
ولقد كان سيدى الفقيه حازما بكل معاني الحزم الذى يفسره أبي ، لأن الحزم الذى يعنى التبصر فى الأمور كان لغة لايرقى اليها الا الندرة من آباء عهدنا الذى ندرسه ومعلميه ٠

كان الحزم لايتناول في حياتنا الا لهب الظهور والأطراف بالعصى الغليظة والحبال المفتولة ، وكانت (الفلقة) في الكتاب جزاءً له قيمته العالية في تربية الأولاد وتحفيظهم ، وكانت القاعدة العامة في الكتاب والبيت : (رب ولدك ، وأحسن أدبه ٠٠ مايموت حتى يفرغ أجله) ٠

---

(١) عليها وتحتيها تقرآن بالإمالة.

أولئك آبائي عفا الله عنهم ، فقد فطروا على ما اعتقدوا خيره ، ونشأوا على ماظنوه حقا • فقاسوا لأنفسهم من المعاناة مالا يحتمله جلد ، وأذاقونا من بأسهم ما كلت منه أجسادنا الصغيرة •



(٢)

محظوظون في الكتاب

وكنا في نظر فقيه الكتاب أوزاعا ، تتنوع حفائقنا بتنوع اقيامنا الاجتماعية ، شأننا في ذلك شأن الناس فى نظر الحياة كما بلوناها فيا بعد ٠

كان فينا المحظوظ بمركز أبيه ، أو غناه ، أو نفوذه الشخصي ، وكان بيننا (الغلبان) لفقره أو يتمه أو ضعف شخصية أبيه ٠

ولم يكن لى من مركز أبي ، أو غناه في الحياة مايؤهلني للحظوة ، كما أني لست معدودا في اليتامى أو رقيقى الحال ، لأن أبي كان أغنى من فقير ، وكان قد خصنى بعبد اشتراه لخدمتى واصطحابي إلى الكتاب ، ولكنى كنت أنا ونفر من أندادى لا نبتعد كثيرا عن مجموعة (الغلبانين) لأن أولياء أمورنا كانوا من أصحاب البأس الذين وهبوا لحوم أولادهم للفقيه ٠ أما عظامهم فله أن يكسرها وعليهم ان يجبروها ٠ فلا غرابة اذا أضافنا الكتاب ٠٠ فقيهه وعريفه الى قائمة الغلبانين !!

كنا نصطفى لكثير من الخدمات ؛ فمنا من يكنس الكتاب ، ومنا من ينظف المرحاض ، ومنا من يحمل الماء إلى مركن المضر حيث تمسح الألواح ، ومنا من يملأ (شربة) سيدنا ويبادر فيسقيه وعريفه اذا عطشا ، ومنا من تخصص للمروحة اذا اشتد الحر على سيدنا ، أو يدلك رجليه اذا احتاجتا الى (التكبيس) ٠

كنت أشارك في بعض هذه الخدمات أو اكثرها لأن سيدنا كان لايدين كثيرا بمبدأ التخصص وكان يميزني ويختصنى برعاية بالغة في بعض الاحيان فيسلمنى نعاله أمضى به الى العم جابر الخراز فى رأس المدعى ، وأبقى الى جواره في انتظار الفراغ من تسميره ، أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل اليها (زنبيل المقاضي) وأقضى وقتا غير يسير عندها أعاونها في غسل (الصحون) والأطباق وأعنى بطفلته الصغيرة عندها ٠

وكان يصل الى علم والدى بعض ما أعانيه في الخدمة فلا يغيره ما يسمع ، لأن مبدأ (من علمنى حرفا صرت له عبدا) عقيدة لا يصح التهاون بها عنده . ولأن الفتوح في رأيه رهين برضاء الفقيه ، ورضاء الفقيه كائن ولابد في التوافر على خدماته وتسمير نعاله ٠

فليت الآباء يعنون في كل زمان بتمحيص أمثال هذه الحقائق ، ويتفهمون معانـي الاغضـاء عن كرامـة صغارهـم ، ويعينونهـم ما استطاعـوا على بنـاء شخصياتهم ، واقامتها في اعتدال موزون ٠

وكنا جماعة (الغلبانين) في الكتاب عرضة للظروف الحرجة التى (تتنرفز) فيها أعصاب سيدنا ، فاذا أخل احدهم بنظام الجلوس ، أو شاغب جاره وسرت العدوى الى من يليه فثار اللغط واشترك الصبية في زوبعته (تنرفز) الشيخ ، وتوترت اعصابه وشرعت عصاته تلهب أول ظهر يصادفه من ظهور الصبية ٠

ولاتجهل العصا طريقها إلى ظهور الغلبانين لأن اليد القابضة عليها ـ يد سيدنا ـ تعرف من معاني الكياسة والحزم مالا تعرفه كل كتب التربية الحديثة ٠٠ فهى لاتجهل أن لمس المحظوظين بأهون مايكون به لمس العصا يثير مشاكل لا قبل لسيدنا بها ، وأن فى ظهور الغلبانين ما يحفظ هيبة الكتاب ٠ وفي اطرافهم مايشفى غيظه في جو آمن من العواقب الخطيرة ٠

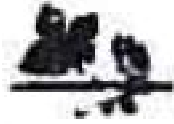
قلت مرة : ياسيدنا ـ هذا ولد العيدروس وولد الصافي يجرون خلفـي في الأسواق ويصيحون (دولامين ٠٠ دولامين ٠٠ دولا نصارى ولايهود ٠٠ كشوا عليهم بالبارود) قلت له ذلك وأنا أجهش بالبكاء من فرط ما نالنى من الألم ، فنظر الشيخ الى دموعى مره والى خصومى ـ وكانـوا من الفـريق المحظـوظ ـ أخرى ، ثم رأى أن من الكياسة أن يتصرف في حزم ، وأن ينسى المخطئـين وأخطاءهم ، وينتزع من هذا الغلبان مايحقق عليه الجزاء والعقوبة ٠ قال : أعد ما تقول فرحت أعيده في براءة الطفل ٠

(دولا مـين ٠٠ دولامـين ٠٠ دولا نصـارى ولا يهـود ٠٠ كشـوا عليهـم

بالبارود) فما ملك أن تصنع الغيظ لتبجحي في ترتيل مثـل هذا القـول على مسامعه ، وشرع ينهال على طرف من جسدى بخيزرانته اللدنة حتى ترك أثرها واضحا في كل عضو منى ٠

ولكنه أبي في النهاية الا أن يكون منصفا في حدود مايفسره من معانـي الانصاف ، فقد التفت إلى خصومى بعد أن تركنى في شبه غيبوبة ، وأهـاب بهم ٠ (ياواد ماتقعدوا عاقلين انت وهوه !!) ٠

عفا الله عن كتاتيبنا وأشياخها ، فقد كانوا معذورين بعدوى العصر الذى يعيشون فيه ، وقد تركوا أثرهم في جيلنا مستعصيا على كل المحاولات التى يحاولها العلم بما ينشره من ثقافة فعسانا لانورث أخلافنا مثل هذه العدوى ٠



(٣)
أبجد ، هوز

ولا أدعى أننى كنت أضيق كثيرا مما ينالنى من عسف الكتاب ، لأن تفكيرى كان لايتسع لادراك ما أدركته فيما بعد ٠

أما نصيبى من خدمة الفقيه في الكتاب ، أو السوق أو البيت فكان يصادف في نفسى هوى ٠٠ كان لى بمثابة استجمام أستمتع فيه بما لم يتهيأ لى مثله وأنا مكب على تلويح رأسى بين الصعود والهبوط في زمرة أندادى ونحن نصيح على وتيرة واحدة « أليف لاشيون عليها ٠٠ والباء واحدة من تحتيها » وأبصارنا عالقة في خطوط رسمها العريف في ألواحنا ، لاندرى منها مكان « الاليف » ولانفهم منها معنى الشيون الذى لايكون عليها ، أو الواحدة التى تكون من تحت الباء ٠

كنت أفرح (بزنبيل المقاضي) أجعل معاليقه في يدى ، وأطوح به في الهواء طول الطريق إلى بيت سيدنا ، وكنت أجد في غسل الأطباق ، والعناية بولده الطفل ، والذهاب بنعاله الى عم (جابر الخراز) فرصة لذيذة أقطع فيها الوقت بعيدا عن شخط العريف ، ولسع خيزرانة الفقيه والنظر إلى (الأليف اللاشيون عليها) في وجه اللوحة الكئيبة التى مضت عليها شهور عديدة دون أن يأذن العريف بمسحها (بالمضر) وكتابة درس جديد في مكانها ٠

ولا أريد أن أنكر بلادة فهمى وعصيانه على استظهار دروسى الأولى ، فقد كان ذلك عاملا قويا في ثباتي عند درسى الأول ، وضعفى عند تخطيه الى مايليه ٠

اذا أضيف إلى هذا استغلالى فيما يقتل وقتى من خدمات الفقيه تبين مدى طول المدة التى قضيتها في معرفة (الألف لاشيون عليها) ٠

وكان الصبيان في ذلك العهد لاتتميز درجات تحصيلهم الدراسى بأرقام السنوات والفصول التى ينتمون اليها ، فليس هناك سنة أولى أو رابعة ٠ وليس

ثمت فصل - (ا ، ب) وانما الميزة الواضحة أن يسأل الصبى عن السورة التى وصل اليها فيجيب سورتي « الحمد » وهو يعنى الفاتحة • أو يقول : بسورتي « إنا أعطيناك » وهو يريد سورة « الكوثر » وبذلك يتميز محصوله العلمى في الكتاب •

وكان لايسىء أبي شىء ما يسيئه سؤال الناس لى عن سورتي بعد عام كامل من دخولي الكتاب ، فكنت أقول : انها (ألف لاشيون عليها) دون أن أستشعر الخجل فيما أقول •

وظللت على هذا شهورا من العام الثاني حتى انتهيت من حروف الهجاء . وشرعوا يكتبون لى فى اللوح شيئا جديدا يسمونه : (أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ) •

ولم يرهق بلادتي شىء ما أرهقها هذاالدرس فقد كان يتعذر على اخراج الحروف من مخرجها • واني لأذكر اليوم كيف كان العريف يكرر أمامى (تخذ ضظغ)ضاغطا على مخرج كل حرف منها ، فلا يطاوعنى النطق على تقليده ، وتلتاث عليّ الحروف كما تلتاث على طفل يلوك الكلام ولا يحسنه •

ولطالما سألت نفسى - بعد أن استوى رشدى وبدأت أعقل الأشياء - عن الرابط بين الأبجدية الهوزية ، وبين الطفل البادىء في الكتاب فلم أظفر بما يفيدني في الأمر •

كنت أتساءل أهى كلمات عربية تؤدى مفهوما خاصا يتدرج فيه الطفل إلى مابعده من دروس ؟ ام هى رطانة أعجمية أقحمتها الكتاتيب لتضمن قيمة جهودها أمام زبائنها من أولياء أمور الطلبة ؟ أم هى أسماء لنفر من الجن الصالحين يتعين على الصغير استظهارها تيمنا بما فيها من صلاح أو بركة •

قلت هذا لستى[1] مرة وكانت شغوفة بترديد مثل هذه الكلمات على أنها أسماء لبعض ملوك الجان ، وكانت تحفظ أسماء أهل الكهف ، وكلبهم قطمير ، ولا تفتأ

---

(١) تطلق كلمة « ستي » في الحجاز على الجدة أو الأم •

تكررها وكانت تتحصن بها من العاديات !! قلت أسألها عن الابجدية الهوزية ، وعلاقتها بتعليم الاطفال • فاستهجنت منى هذه الصفاقة وقالت (احنا ناس كنا نسمع زى مايقولوا الكبار) ثم جمعت سبحتها بين كفيها • ورمت بها في وجهى في حماس ظاهر وهى تقول : (بكرة تشوف آخر هذا الهلس اللى تهلسه على المشائخ والناس الكبار) ولقد شفت والله ماقالت ، ورأيت عاقبة (هلى !!) فأنا اليوم أقاسى من المعاناة في التوفيق بين عقلى وبين ماورثته من أرتال الخرافات مالا يحتمله جلد •

واستطاع بعد هذا عريفى أن يضع يدى على رأى الكتاب في الأبجدية الهوزية فقد اجتمعت به بعد أن اكتهل ، وكنت في زهو شبابي ، وسألته فقال لى : ان هذه الأبجدية تجمع حروف الهجاء وعددها ٢٨ بالتمام والكمال • قلت : ان هذا لم يغب عنى وانا في هذا السن ، بل أزيدك أني رأيت الابجدية الهوزية بابا له قيمته في كثير من كتب السحر ، واصحاب الاوفاق الذين يحسبون بالمجمل الكبير وبالمجمل الصغير ولكن المسألة لاتزال – في رأيي في مكانها الأول لأني لم أفهم بعد علاقتى كطفل بهذه الرطانة !!

فلم يزد عن أن رماني بنظرة شزراء ، أعادت الى ذاكراتي (شخطاته) في الكتاب ، وتركتنى أحس برعدة خفية فى أعماقى ثم تداركنى لطف الله فقد ولاني ظهره وغادر المكان •

ودرجت في الكتاب بعد ان انتهيت من أبجد إلى دروس نسيتها وان كنت لا أزال أذكر أننى كنت أعيها بذاكرتي ، واحشوها في واعيتى دون ان أعرف مكان حروفها في اللوح الا في القليل النادر وكان عريفى حصيفا لاتفوته (القراءة العميانى) لهذا كان يبذل جهده في اختبار ما أقرأ ، فكنت اذا انتهيت مما قرأته سردا عاد فغطى بعض الكلمات في اللوح بأصابع يديه ، وكشف عن بعضها لأقرأها وحدها • ولكنى كنت اكثر منه حصافة أومكرا وتخابثا – اذا شئت – لأني كنت احفظ الكلمة من اللوح واحفظ مكانها فيه فاذا غطى ماحولها بادرت بنطق

الكلمة اعتمادا على موقعها الذى أعرفه اما مفردات حروفها فكان لايعلم الا الله مبلغ جهلى الكامل بها ٠

وبذلك قضيت في كتاب زقاق الشيش نحو سنتين حشوت فيهما واعيتي بالكثير الذى حفظته كنتيجة للتكرار المستمر ، أما الحروف فلم أتبين من حقائقها ماييزها عن بعضها ٠ وأعنى بذلك أننى (لـم أفـك الحـرف) في لغة ذلك الزمان ٠

(إصرافه) أو (إقلابه)

ولم تكن للكتاب مساحات أثناء الحصص يستجم فيها الاطفال كما تفعل مدارس اليوم !!

كان الجد يطبع معلم الكتاب وعريفه بألوان من الصرامة لاتتفق مع الميوعة التى ابتدعت فيما بعد يوم انشئت المدارس ، ونظمت لها الحصص وما يتخلل الحصص من الفسح ٠

لقد كانت فكرة الفسح في ثنايا الحصص بدعة استهول أمرها فقهاء الكتاتيب وعرفاؤهم .وراحوا يطرونها بنقدهم الساخر ، ويهزؤون بأصحابها هزأهم بالمجانين والعابثين ٠٠ وشاركهم في الهزء طائفة الاولاد الذين درجوا في كتاتيبهم على الاستخذاء لتقاليد الكتاب التى طبعهم عليها (سيدنا) وعريفه ٠

وشارك آباء الاطفال في موجة الهزء التى طغت في محيط الكتاتيب ٠٠ فقد كان الأباء لايفضلون لاولادهم هذا العبث الذى بات يتجلى في انطلاق اولاد المدارس الجديدة بين ساعة وأخرى باسم الفسحة ٠٠ لان بيوت التعليم ما خلقت في رأيهم الالتربط ارجل الاولاد ٠٠ و (تحط عيونهم في الالواح) طيلة اليوم وتحفظهم من الهبهبة !! والجرى في الشموس ٠٠

في سبيل ربط الأرجل والحفظ (من الهبهبة والشموس) كنا نقضى سحابة يومنا مقيدين بألواحنا لانحيد عنها ٠٠ وكانت رؤوسنا لاتنفك صاعدة هابطة مع حركات النغم الذى يضبط العريف وحدته كما يضبطها المقدم في جوقة موسيقية ٠

وكان لايطلق إسارنا من هذه الغمرة الشاقة الا ان ندعى العطش او (حصر الحاجة) فينصب الصغير منا قامته امام سيدنا جامعا اصابعه امام فمه استئذانا بالشرب ، او يجمعها ويطلق البنصر للاستئذان بقضاء الحاجة فلا يتردد سيدنا فى الاذن الا في القليل النادر الذى تشتد فيه (عكننة المزاج) او يشعر فيه ان

الطالب كثير (الزوغان ٠٠ لعاب !!)

ولا انكر أني كنت من (اللعابين) كثيرى (الزوغان) ، واني كنت لذلك لا احظى باذن سيدنا الا بعد لأى طويل ٠٠ ويبدو أنى كنت قليل الكسوف لأن سيدنا كان لايفتأ ان يرفض طلبى حتى أعاود الاستئذان قبل مضى لحظات ٠٠ فاذا أعاد الرفض أعدت الطلب ٠٠ وربما (شخط) فى وجهى : (اقعد يا ابن الحطبة ، والله منت خارج حتى تخلص تسميعك) ٠٠ فلا يكسفنى الشخط بقدر مايثير عنادى (للخروج) وربما استطعت في غفلة من سيدنا ان اتوجه بنظرة استعطاف الى مقر العريف فيتطلع الى مكان سيدنا ٠٠ حتى اذا وجده مشغولا بغيرى اشار لى بالسماح فأحفظ له الجميل ولا أنسى ان اروج له في بيع (الفوفل) اذا حان وقت الانصراف ٠

وكان لبيت الراحة في الكتاب نظام نافذ المفعول فقد اناط سيدنا ببابه لوحا من المقوى دلاه في حبل وكتب على احدى واجهتيه (فاضى) وعلى الواجهة الثانية : (مشغول) فاذا اقبلت عليه وكان وجهه المكتوب (فاضى) علمت ان بيت الراحة غير مشغول واستطعت ان تأخذ طريقك الى داخله بعد ان تقلب اللوحة على وجهها الآخر (مشغول) ليمتنع غيرك من القرب حتى تفرغ من حاجتك ٠

وكنت يومها لا اجيد قراءة مافي اللوحة ولكننى حذقت بطول الاستمرار الفرق بين الخالى والمشغول في شكل الكتابة ورسمها في اللوحة ٠

كنت الج الباب اذا خلا وليس بى حاجة الى شىء الا السأم الذى اتمنى ان أبدده ٠٠ ولا سبيل الى تبديده الا هذه (الشيطنة) التى افتعل فيها الحصر حتى اذا صفقت الباب خلفى وقفت في حيرة لا أعرف ما اصنع ٠

كنت أقف واعضائى تلح في طلب الحركة ، وليس امامى للحركة الا مدى اضيق من مدى الثعلب المحبوس في قفص (السيرك) فلا يلبث ان يعاودنى السأم الذى فررت منه ٠

وتفتقت (الشيطنة) في بعض المرات عن الوان من اللعب لها غرابتها ٠٠ واني لاذكر الى اليوم كيف كنت اصعد فوق (الحنفية) خزنة الماء في بيت الراحة واتربع فوق غطائها الخشبى ثم اعمد الى (المغراف) فاغمره في الماء حتى يمتلىء ، ثم اوزعه في اركان (بيت الراحة) ركنا بعد آخر كما يفعل بائع الشربة الذى كنت اراه في طفولتى يغمر ملعقته الكبيرة في قدر الشربة ثم يوزعها على أواني الزبائن في دكانه ٠

كانت طفولتى (المتشيطنة) تمثل لى اني هنا أبيع الشربة ٠٠ وأخاطب نفسى لأرد عليها بلا فرق بين بائع الشربة وبينى : (هات الفلوس ياولد ٠٠ شيل قدرك يا اخينا ٠٠ خلاص اعطيتك الوصاية) في كلمات صادرة منى والىءلو تهيأ لسيدنا ان يسمعها ، او يفتح الباب ليراني متلبسا بها لحكم بجنونى ، وتفضل فطردنى من كتابه ٠

انها خيالات صبيانية لايكاد يسلم من أمثالها غيرى ولكن الناس يأبون في الغالب الأعم ان يسجلوا على انفسهم مامر بهم من ترهات الطفولة كما اسجلها على نفسى ٠

انها خيالات صبيانية لابد منها لتبدد السأم الذى يخيم على غرفة التعليم في كتاب سيدنا ولايعرف مقدار ما احسن منظمو الفسح في المدارس الا من قاسى عناء القيود التى كانت تربطنا بألواحنا سحابة اليوم في اطراد لايتخلله الا شرب الماء او قضاء الحاجة المستعجلة او محو اللوح عند حافة المركن في حوش الكتاب ٠

اما المسامحات الصيفية التى ابتكرتها النظم الحديثة فتلك مباذل كانت لاتعرفها كتاتيبنا لانها لاتعترف بأثر الصيف او الشتاء في مجرى الدراسة ٠

على اننا نظفر بضالتنا في المرح ايام الجمع والاعياد ٠ وفي مناسبات النجاح التى كان يحتفل فيها آباء الاولاد بصغارهم اذا بلغوا في الكتاب سورة الفاتحة ، او ختموا جزء(عم يتساءلون)او تفوقوا عن ذلك بما بلغوا ٠

كان أولياء أمور الاولاد في كتاتيبنا يمنون فقيه الكتاب وعريفه بحفل مشرق ، وفير الربح كبير المائدة اذا استطاعا ان يقدما ابنهم فيبلغا به سورة الفاتحة او يساعداه على ختم (جزء عم) وكان الفقيه احذق من ان يفوت على نفسه أمثال هذه فما يكاد يتبلغ الطلب حتى يحرص على تنفيذه ـ : « اصبر لى كمان غلاق الشهر ٠٠ وانت تشوف اللى يسر خاطرك في ولدك ٠٠ سامع ياواد ٠٠ والله ان كان ماتشطر ٠٠ بعدين اشنق العتبة واعلق الباب ٠٠ شوفني اقل لك هذا الكلام ٠٠ قدام ابوك !!)

ولا يخلف سيدنا امثال هذه الوعود فان الشهر لايكاد يوشك على الانسلاخ حتى يعلن الاب بتعيين يوم الحفل ٠٠ فقد أوفى الولد على النتيجة التى يطلبها أبوه بصرف النظر عن كيفية النجاح والطريقة التى يبلغ بها ذلك الاوج فقد كانوا رحمهم الله يستوحون (البركة) فيما يتعلمون !! اكثر مما يتحرون الدقة والجد ٠

كنا نسمى الحفلات (اصرافة) أو (اقلابة) وكل مسمى منها يدل على لون خاص نسيت اليوم الفرق بينهما ٠٠ واعتقد ان (الاصرافة) كانت تعنى حفلا بسيطا لايتجاوز حدود الكتاب يحضره والد الطفل وبعض اقاربه ليستمعوا الى قراءة الولد سورة الفاتحة التى بلغها في لوحه المنقوش يومها بالاحمر والاخضر ٠٠ حتى اذا انتهى من قراءتها اقبلوا يهنئون سيدنا على مابذل ، ويقدمون له ماسخت به ايديهم ثم شرعوا يوزعون الحلوى على اولاد الكتاب ٠٠ حتى اذا فرغ الحفل صاح سيدنا في كتابه (فيدوس يا أولاد) و (الفيدوس) كلمة لا أفهم الى اليوم معناها ولكنى كنت اعلم وانا طفل انها تعنى الانطلاق من أسر الكتاب طوال سحابة ذلك اليوم ٠

وتعنى الاقلابة ـ اذا لم تخنى الذاكرة ـ قلب الكتاب من قواعده الاساسية . فلا (شخط) يومها ولا (نخط) انه يوم ممتاز نستعد له بـ (الجبب المقصبة) ، والحزم المفضضة والعمائم (التلى) و (النعل ابوخرزين) المحفوظ بعناية في قاع صندوق والدتي ينتظر المناسبات ٠

فاذا اجتمع الاطفال في ارديتهم الخلابة في كتاب سيدنا خرج عليهم سيدنا في ثوبه (الدرابزون) المطرز صدره ، وياقته بالحرير (الشيناوى) وصديره (المزرر) مما يلي لحيته ، وجبته الفضفاضة التى لاترى النور الا في مثل هذه الاعياد !! وعمته المكورة في جلال وابهة : وطيلسانه الموشح بأدق أشغال الابرة في كشمير .

ويشرع سيدنا في تنظيم الاولاد صفوفا ينتقى في مقدمتها اصحاب (الجبب) اللامعة والعمائم الرائعة ، ثم يشير الى العريف ليمضى في مقدمة الصفوف الى مكان الحفل في بيت صاحب (الاقلابه) ويهيمن بنفسه من المؤخرة على تنظيم الصفوف .

ولاتكاد صفوفهم تغادر الكتاب حتى تتعالى اناشيدهم في انغام جميلة يرتلون فيها ادعية وصلوات حفظوها لهذه المناسبات .

ويمضى الموكب في طريقه الى ان يسامت بيت الدعوة حيث يكون زميلهم قد اعد نفسه لاستقبالهم على صهوة جواد زينوا سرجه بالقطيفة المزركشة ، وانا طوا بعنانه الجدائل الحريرية ، وكسوا جبهته بالخرز البراق واحاطوا جيده بالفصوص اللامعة .. ووقف حوله حشد من الاقارب والاهل يسنده بعضهم على صهوة الجواد ويحتفى البعض الآخر بموكب القادمين من الكتاب على رأسهم سيدنا بعد ان زحف الى مقدمة الصفوف واشار الى العريف بتنظيمها .

وتنطق اصوات المدعوات من خصائص النوافذ المغلقة (مزغرطات) في انغام لاتنقطع من نافذة الا لتتصل في نافذة اخرى وينهال رشاش الملح في تضاعيف ذلك من عليات النوافذ طردا للشياطين وحرزا من عيون الحاسدين .

ولايلبث ان يتحرك الموكب في جولة عامة يذرع بها اكثر الشوارع يتقدمه الطفل المحتفى به على صهوة جواده وقد احتضن لوحه المزين بالسورة التى بلغها فقلب من اجلها الكتاب انقلابا او (اقلابا .. او اقلابة) وتزحف الصفوف خلفه تهزج اناشيدهم الطريقة ، واصواتهم البريئة .. وتزدحم

الشوارع بالمتفرجين على طول الطريق وعرضه ٠

ويظل الامر على هذا حتى يستأنف الموكب عودته من جولة الشوارع الى بيت المحتفى به حيث تكون الموائد قد مدت لاستقبال صغار الكتاب تحت رئاسة سيدنا ولاينتهى الحفل حتى تكون جيوب سيدنا قد طفحت بما اتحفه اهل الصغير وما تبرع به بعض الاقارب ٠

تلك الوان كنا نجد فيها متنفسا من سأم الكتاب ٠٠ كنت اتمنى الا تزول حتى يتفنن العصر الذى نعيشه في احلال غيرها مكانها تبديدا لسأم الحياة التى تواتينا رتيبة دون ان تتجدد مناظرها او تتنوع ٠



خالتي حسينة

كانت تسكن خالتي حسينة الى جوارنا ، وكانت من السيدات الصالحات المتخلفات عن بيوتات ممتازة في مكة ٠

فقد كانت مملوكة لاحد الأشراف ، فلما اعتقوها زوجوها باحد عبيدهم ، وانتقلت معه الى البيت الذى سكنته بجوارنا ٠

وكان عم محبوب (زوجها) رقيق الحال لايملك من حياته الا الكفاف الذى لايغنيه عن افضال الناس ولايمنعه من كدح زوجه في الحدود التى لايصعب عليها الكدح فيها ٠

وكانت خالتى حسينة قد قرأت في بيت اسيادها الذى تركته ما كان يقرأه النساء في ذلك العصر ٠٠ قرأت المصحف الى نهايته وختمته عدة مرات ٠٠ ثم قرأت مولد البرزنجى واتقنت ترتيله في انغام لها حلاوتها في حفلات الموالد الخاصة بالنساء في ذلك العصر ٠٠ كما حفظت قصيدة البردة والهمزية عن ظهر قلب ، واصبحت بارعة في تجويد أبياتها كلما حفل بها مجلس ٠

وبرعت الى جانب هذا في قراءة دلائل الخيرات وحزب (الجوشن) ، ومالا اعرف اسمه من اوراد وأدعية اخرى ، فكانت لذلك تعد من طلائع الطبقة المستنيرة بين أترابها وقريناتها !!

وكان من الطبيعى ان يستفيد الناس من خبرتها العلمية فيبعثوا اليها بصغيراتهم يتعلمن عندها القراءة ، وبعض ماتيسر من القصائد والموالد التى كان يحرص الناس على تجويدها يومذاك ٠

فكان في بيتها مايشبه الكُتاب ٠٠ ولم يكن كُتابا كاملا ، لانها لاتقبل جميع الطالبات ، اما الطالبون من الاطفال فانها ترفضهم خشية « شيطنتهم » كما تقول ، وحرصا على بنات الناس ٠

وكانت تعنى الى جانب اشتغالها بالتعليم بنظافة بيتها المتواضع وتنسيق اثاثه رغم فقرها في صورة لايزال جمالها مرتسما في ذهني الى اليوم ، فقد كانت جل غرفها مفروشة بقطع كانت بسطا قبل ان تتمزق اوصالها ‥ ولكن خالتي حسينة استطاعت ان تحيل هذه الأوصال الممزقة الى قطع مبوبة يستوى منها فرش تلمح فيه النظافة وتجمله طرافة التنسيق ، اما الزاوية التى جعلتها مطبخا ، واما البلاطة الصغيرة التى اتخذتها حماما وأما سائر الحيطان وجميع درجات السلم فما كانت العين تقع فيها على مايوازى حبة الخردل من الوسخ ٠

ولاغريب في امر خالتي حسينة فقد كانت اكثر البيوت لذلك العهد صورة طبق الاصل لما وصفناه في بيت خالتي حسينة وكانت رباتها لايتنافسن في شيء تنافسهن في نظافة مايلبسن ، ويفرشن او يطعمن فكن وكانت بيوتهن مضربا للمثل في النظافة وجمال التنسيق ٠

وكانت خالتي حسينة قد ادركت بحكم جوارها لنا أن قراءتي غير صحيحة ، وقبلت بصورة خاصة ان أوافيها بعد خروج البنات لتصحح قراءتي ٠

وماكان بيتها جديدا على فقد كنت ألعب في دهليزها مع بنات كُتابها ‥ وكثيرا ماكانت امى ترسلنى اليها في قضاء بعض الحوائج او تصحبنى معها في الأمسيات التى تسمر فيها عندها ولكن شأني اليوم كتابع مقرر لها غير شأني بالأمس !

شرعت تفرض قيودها : (لاتدخل ياواد حتى تلبس القبقاب وتوقف هنا تغسل رجليك ووجهك ويديك ٠ اغسلهم من الابريق ، ولاتمسك المغراف وانت عليك الوسخ قناطير !! اصبر ياواد ‥ خليك واقف فوق القبقاب حتى تنشف رجليك !!)

فكنت اذا أقبلت على بيتها ، وصعدت الدرج ، وقفت دون مدخل الغرف حتى تفرغ من ترتيب الرف او (دهن السموار) النحاس ثم تقبل على الابريق فتملأه لىَ وتتركنى اغسل أطرافي ولا تأذن بدخولى حتى يجف الماء من رجلى ٠

واذا جلست للقراءة أمرتني بأن أضع (جزء عم) فوق كرسي خاص يكون زاوية منفرجة يستريح عليه الجزء ، واخذت بيدها ريشة نعام وبدأت تشير الى الكلمة التى يجب ان اقرأها بعد أن تنطقها أمامي ضاغطة على حروفها ٠

ولم يكن أسلوبها في هذا التلقين خيرا من أسلوب الكتاب فالطريقة واحدة اذا استثنينا الريشة والكرسي المزدوج ٠

وما قضيت أياما في درسها حتى ضاق صدري بخالتي حسينة وشعرت كأن حصتها جاءت ضغثا على ابالة ٠٠ فهؤلاء زملائي في الحارة يقضون يومهم معي في الكتاب حتى إذا دنا العصر انطلقوا يلعبون (الكبت) في (برحة المروة)، أو (شرعت دندن) أو الاستغماية) في خان السداري وقيدت ٠ وحدي إلى خالتي حسينة ٠٠ أكرر ما تلقنني في سآمة وملل ٠

ولم يفرح أبي لشيء فرحه بالتحاقي بخالتي حسينة ٠٠ كان يقول لأمي :

(دحين استرحنا من الهبهبة الكدابة ، والجري في الأزقة ، وشيطنته مع الناس ٠٠ دحين نقدر نقول بلكي ربنا هدى الواد واللي ينقص من الكتاب الفالصو تقدرتكمله حسينة ٠٠ هذه حرمة طيبة وإن شاء الله في وجهها الفتوح)٠

وكان أبي رحمه الله معذورا فيما يرى فقد نشأ أميا ، وتركت الأمية في نفسه شعورا عميقا بالنقص أراد أن يعوضه في خلفه بأفظع ما تراءى له من ألوان التعويض ٠٠ كان يرى أن نجاحي وقف على المثابرة المستمرة التي لا تعرف الهوادة، ولا اللعب ولا جري الأزقة : « اتوضأ ياواد وصل العصر واقعد اقرأ حتى تصلي المغرب ٠٠ وبعد المغرب أيش عندك ؟ برضه اقرأ حتى تصلي العشاء وتأكل لقمتين وترقد تصبح حافظ !!»

وما علم رحمه الله أن برنامجه في المثابرة هو علة بلادتي وجمود ذهني ، وأن

الساعات التي أقضيها في الكتاب مكبا على (جزء عم) كانت أكثر من الكفاية للمثابرة ، وأنه لابد بعدها من انطلاقي إلى البرحة والأزقة لأشبع رغبتي في اللعب ٠٠ وأبدد ما اعتراني من سأم الكتاب ، وأنشط ذهني لاستئناف الدراسة في أوقاتها المقررة في اليوم الثاني ٠

وما كان أبي في عهده إلا صورة للكثير من معاصريه الذين لا يرون في اللعب والجري تنشيطا وتبديدا للملل بقدر ما يرونه مضيعة وشيطنة تستحق الزجر والعقاب ٠

وهكذا جاءت المثابرة التى قررها أبي ، ووافقت عليها أمي وخالتي حسينة برد الفعل المنتظر ، فقد تبلد ذهني أكثر مما كان بليدا ، وضغط الكبت على حواسي فشل قدرتها ، وعطل وظائفها وأساء الحرمان من اللعب إلى أخلاقي العامة . فكنت لا أجد متنفسا ضئيلا حتى أنفجر شيطنة ، وأمعن في (الشقاوة) وأترك أبي وأمي وخالتي الفقيهة يؤمنون شديد الايمان بأن شيطنتي معدومة النظير ، وأنه لايضارعني في الشقاوة حتى (العفاريت المسلسلة)٠

ولم تتسع معارف أبي لدراسة العلة التي تفاقم داؤها ليعطيها نصيبها من التنفيس ، ولم يدرك أحد من معارفنا أو جيراننا مبعث الخطر ليشير بما يقتضيه الحال بل اتفق إجماعهم على نقص تربيتي وكان أحدهم يهيب به « ياشيخ محمد ـ رب ولدك ، واحسن أدبه !! ما يموت حتى يفرغ أجله !»

نشط للتربية وشرع يعد لها من الحبال المفتولة والخشب الجامد والخيزران اللدن ما يكفي لأداء المهمة الشريفة . فكانت لا تضيع « هللة » من يدي ، أو ينقلب لوح العيش من على رأسي ، أو ينكسر سن قلمي البوص ، أو يقول الجيران انهم شاهدوني أترك مداسي فوق عتبة الجيران وألعب « الكبوش » أو أضارب صبي الفوال حتي يحيل والدي الأمر إلى الحبل المفتول ، والخشبة الجامدة دون أن يسمح لي بكلمة واحدة أدافع بها عن نفسي مهما كانت ظلامتي . ثم لا يتركني إلا جسدا ممزقا وأضلاعا دامية ٠

وتركت هذه القسوة أثرها في نفسي ٠٠ هيأتني للعناد والمكابرة وعلمتني قلة المبالاة ، وشجعتني على كثير من الصعاب التي يخشاها غيري ، وأثبتت لي أن « العلقة » الكائنة لابد أنها كائنة !! سواء كنت فيها ظالما أو مظلوما ٠٠ فما يمنعني أن أظلم ، وأن أثأر لنفسي ٠

ولا أنكر أن أغلب هذه الصفات لازمتني الى جزء طويل من حياتي وأنه لو لم تصادفني دراسات طويلة قرأتها فأدركت منها مواطن الضعف من تربيتي وثابرت على علاجها ما استطعت لكنت اليوم من أشقى من عرف من الأشقياء ٠

وهكذا استقر في ذهن خالتي حسينة أن الشيطنة غريزة متأصلة في نفسي ، شايعتها على هذا أمي ، كما شايعها جميع الجيران والمعارف ٠٠ أما أبي فقد آلى أن يحيل الى العصا الجامدة والحبل المفتول كل أخطائي ، أو أستقيم وألغي شقاوتي ٠

(٦)

كتاتيب ومعلمون

طالت إقامتي في الكتاب كما طال ترددي على خالتي حسينة دون أن أنجح في (فك الحرف) فقد كانت قراءتي كلهـا آلية بشهـادة جميع معـارف أبـي وجيرانه ٠

وأشير على أبي أخيرا أن ينقلني الى غير هذا الكتاب فألحقني بكتاب في باب الدريبة ، ثم بآخر في جبل الهندي ثم بغيره وبغيره ، حتى انتهيت إلى كتاب أوسع كان قد أسسه نابغة جيله الشيخ محمد الخياط في مكان القبان اليوم بجوار المدعا وقسم طلابه إلى فصول بعضها أعلى تحصيلا من بعض ، وكان الشيخ عبدالرؤوف الصبان من تلامذة فصوله العليا ، فألحقت فيه بفصل المبتدئين ، وشرعت أعالج التهجي من جديد ٠

ولم يكن حظي في الكتاب الجديد أحسن مما سلفه من كتاتيب ، إلا أن طول الاستمرار كان له أثره الضئيل ؛ فقد كنت قضيت من عمري إلى أن التحقت بكتاب القبان نحو ست سنوات استطعت في نهايتها أن أختم (جزء عم) وأن أقرأ في ركاكة واضحة بعض الكلمات من الخطابات التي تصل إلى أبي ويأبى إلا أن يمتحنني بقراءة ما فيها ٠

وأسس الحسين بن على في عهد إمارته أول مدرسة عربية أمـام باب السلام[1] ، وكلف الشيخ محمد خياط أن يديرها ، وأن ينقل طلاب كتابه من القبان إليها ٠ فنقلنا جميعا إليها ؟ والتحقت بالفصول الأولية ٠

وفي هذه الفصول شرعنا نتعلم الخط ، وبعض مبادىء الحساب ثم أضيفت إلينا دروس في الفقه والتوحيد ، والاملاء والتجويد وفنون أخرى بدائية كان لابد

---

(١) وقد أزيلت المدرسة من مكانها بفضل توسعة المسجد والمسعى٠

منها لمدرسة تحضيرية · ولقد سر أبي بخطواتي الجديدة ، ولكنه كان يطمع في تبريز أوضح · ويبدو أن شعوره بآلام أميته كان يثير قلقه ، ويؤثر في حدة أعصابه ، ويحيله إلى شخص خيالي يتطرف في آماله ويمعن في أحلام يتمناها لحاضري لا تتفق مع ما هيأني له في ظروف خاصة من بلادة ذهنية سوف لا تنقشع ـ إذا تقشعت ـ إلا بفعل الزمن وبعد أمد طويل ·

كان يقول لي : « هادا ولد القماش لا يكبرك إلا قليل وهو يطلب العلم ـ ياحافظ ـ عند الشيخ الدهان في المسجد ، وهادا ولد الساعاتي أصغر منك يخرج من يده خط زي اللولو ، وهادا ولد المهرجي في باب السلام ـ ربنا يخلي له ـ يقرأ في الدكان تسمع قرآنه كما أنزل ·· وأنت ياواد اللي ربنا عاميك وطامس على بصايرك »·

كنت أسمع هذا الكلام وأكثر من هذا ، فيسيء من حيث لا يشعر إلى معنويتي ، ويقلل ثقتي بنفسي ولو علم رحمه الله وعلم مثله كثير من الآباء على غراره ، أن من الخير أن يشجعني ويحمد أفعالي إلى حد موزون لأحسن بذلك إلى معنويتي وتركني أثق في نفسي ، وأمضي إلى الأمام في خطواتي · ولكنه وأمثاله رحمهم الله كانوا لا يرون الخير إلا فيما اعتقدوا ·

كان رحمه الله يسألني أن أطلعه على خطي فكنت أقدم إليه سطرا مكتوبا بيد الاستاذ يسمونه (مشقا) وهو كناية عن نموذج يعطى لنا لتحسين خطوطنا على غراره كما تعطي كراسات الخط لتلاميذ اليوم ·

كنت أقدم له هذا (المشق) مدعيا أنه خطي فلا يكاد يلقي نظرة حتى يرميه في وجهي متبرما · (هادا ياواد خط عفاريت موخط ناس يتعلموا في مدرسة !! بكرة تشوف إن فلحت تعال (····) على قبري » ثم يسألني في حدته التي لم تهدأ (فين خط الشيخ هات أشوفه) وعندئذ أعمد إلى سطر من خطي الرديء ـ بحق ـ فلا يكاد يقع نظره عليه حتى تنفرج أساريره ويهيب بي (شوف الخط الحلو كيف !! شوف طالع ياواد كيف نضيف !! كأنه لولو

مرصوص !!)فلا أكاد أتركه يتم جملته حتى أضحك ٠٠ ولا أكتم ضحكي . بل أفسره في وقاحة (ياريتك تدري يابويا ٠٠ هو هادا خطي اللي شفته حلو والله العظيم !! أما الاولاني اللي رميته في وجهي فهو خط الشيخ !!) فلا يكاد يسمع ذلك مني حتى تثور ثائرته ويصيح في وجهي : (قم ياملعون من قدامي ٠٠ إنت جاعلني مهزأة ٠٠ أنا أضحك على عشرين من أشكالك ٠٠ شوفوا ياناس الواد ابن ستين كداب ، وحياة ربك إن ما كنت تقوم من قدامي أخليلك ستين وصلة ٠٠ امش قوم من قدامي)٠

وهكذا أقوم وفي نفسي ألف كلمة أتمنى لو أستطيع أن أقولها ولكنه ... أبي !!

ولعل القارىء يدرك أن سخط أبي على خط الاستاذ الذي ظنه خطي كان يفيد معنويتي ، ويعطيني فكرة صحيحة عن حقيقتي التي لا يريد أن يعترف بها أبي ؛ لأن السلبية في نظر هؤلاء الآباء كانت ضرورة لازمة للحزم والتربية العالية ! عفا الله عنهم فقد كانوا يرون الخير فيما يسلكون ٠

وزادت مطامع أبي في نجاحي بازدياد الأيام واشتد قلقه من أجل تعليمي ، فكان يود بجدع الأنف الا يراني إلا مكبا على قراءة أو كتابة ، وألا يسمح للعبث أو اللعب أن يشغل دقيقة واحدة من أوقاتي الثمينة ، فكنت إذا اضطررت للاستجمام لجأت باسم (قضاء الحاجة) إلى بيت الراحة أقضي فيه بعض الدقائق التي تدفع عني السأم كما كنت أفعل في الكتاب ٠

وكانت شؤوني التعليمية بحثا يستنفد أكثر أوقات أبي بالاشتراك مع أكثر معارفه وأصدقائه وجيرانه ـ: (شوف ياأخ حمزه الواد قرايته فيها لكلكة ٠٠ والله ياشيخ ما أدري هو أحد دعا عليه ، والا من فين جاب هادي البلامة ، ايش تشوف ٠٠ تقوم معايا للشيخ الخزامي في الحرم نقل له خلى الواد يجود عندك القرآن بعد المغرب !!)٠

وليت والدي كان يعلم أن اكبابي كان مبعث (بلامتي) وأن حاجتي إلى

العبث واللعب أكثر منها إلى إضافة حصص جديدة أجود فيها ٠

وكان في طريقه إلى صلاة العصر يحلوله أن يمر في باب الدريبة بحفار أختام تركي ويباحثه في شؤوني التعليمية : (الواد إلى الآن ما يعرف يبري القلم ٠٠ كمان خطه أشوفه موشىء ٠٠ ما أدري الولد أبله أصدع ٠٠ أقل له (ياواد تلاتة حاجات تخليك سيد الناس قطة القلم - ولطعة المهر (يعني الختم) واستقامة السطر !! لكن الولد كأنه أحد دعا عليه بهذه البلادة ٠٠ ايش تشوف ياصبري أفندي أنا نفسي أخلى الولد يجى عندك ساعة كل يوم بعد العصر والا ساعتين ، عشان يده تندار في الخط شويه)٠

وبذلك تضاف إلى اكبابي حصة جديدة أتعلم فيها كيف أدير يدي في الخط وكيف (ألطع المهر وأقط القلم - البوص - وأقيم السطر !!)

ويقف إلى دكان عم سعيد الحوات ليشتري لوازمه ، فلا يلبث أن يدور البحث في شأني « تقدر ياشيخ سعيد تسوى (مشق) للولد يخط زيه ٠٠ دخيلك أنا أرسل لك هو إذا جاء من المهرجي يأخذ المشق منك »٠

وأذهب كما أمر أبي إلى الشيخ سعيد الحوات لأستلم منه (المشق) سطرا مدبجا في خط مائل من أعلى زاوية في يمين الورقة إلى آخر منحدر في اليسار من أسفلها ٠٠ مكتوب فيه : (قدوة الاماجد وعمدة الأعيان سيدي العزيز الأعز الأحشم أطال الله حياته وأدام بقاه آمين)٠ ولا يكاد المهرجي يلمح (المشق) الذي كتبه الحوات بين أوراقي في اليوم الثاني حتى يعبس ويسألني عن الحكاية فأخبره بها ، فيحتد ويصيح في وجهي : (هل هادا خط ؟٠٠٠ أنت لعاب ياواد ، وأبوك لعاب) ثم يطردني وأعود الى أبي ٠ فيعود إلى المهرجي ليسترضيه ثم يأمرني أن اخفي خط المهرجي عن الحوات ، وخط الحوات عن المهرجي ، وأستفيد من الاثنين في وقت واحد رغم تفاوتهما في القاعدة والأسلوب كما علمت فيما بعد ٠

ويجتمع أبي في القهوة مع أحد أصحابه فلا يلبث أن يدور البحث في شأني « تعرف واحد يعلمه الحساب ٠ ايش رأيك في عم شاكر المصري اللي يكتب عند

العامود في باب السلام ».

والله جبتها .. ولكن أين الوقت الذي أذهب فيه إلى العم شاكر ، إن جميع الساعات قد توزعت بين المدرسة والمهرجي والشيخ الخزامي والحوات ودراسة البيت .. إن هذا لا يعجزه فيوم الجمعة « فاضي » طول النهار .

وهكذا أجلس إلى جوار عم شاكر (ركبه ونص) وأتسلم منه جدول الضرب على أمل أن أحفظه ، فيغلق دونه فهمي ويمر بي والدي فلا يجد في يدي إلا ورقة واحدة أطوحها يمينا وشمالا وأنا سابح في آفاق بعيدة بين برحة المروة وخان السدارى فيصعب عليه جلوسي فى مثل هذا الفتور ، ويلحظ العم شاكر ذلك فيهيب بي اكتب ياواد : (بركة تصب فيها ثلاث حنفيات : الأولى تملأ البركة وحدها في ١٥ دقيقة ، والثاني تملأها في عشرة ، والثالثة في خمسة فلو فتحنا جميع هذه الحنفيات على البركة ففي كم دقيقة تملأ البركة ؟

ـ نجمعها ياعم شاكر .

ـ طيب اجمعها .

ـ جمعتها ٣٠ دقيقة .

ـ يعني ؟

ـ يعني تتملأ البركة في ٣٠ دقيقة .

ياواد إذا كان حنفية واحدة تملاها في ٥ دقايق كيف ٣ حنفيات تملأها في ٣٠ دقيقة ـ هذا كلام معقول ؟

ويسبقني أبي الجالس على قيد ذراع منا .. يتسمع مسرورا بهذا اللغز الحسابي .. يسبقني إلى الجواب (لا .. كلام غير معقول).

وأكون في هذه الآونة عدت من سبحاتي في برحة المروة بين لاعبي (الكبت) وتنبهت حواسي من غفوتها .

ـ صحيح غير معقول ٣٠ دقيقة .

ـ نطرحها ياعم شاكر

ـ تطرح ايش من ايش .. هادي ثلاثة أعداد ياواد كيف تطرحها ؟

اجمع ١٠ و٥ تساوي ١٥ وبعدين أطرحها من ١٥

ـ يعني كم يبقى .

ـ يبقى صفر .

ـ وهل تتملا البركة بصفر ؟

ـ لا .. غير معقول ، ويهز أبي رأسه موافقا العم شاكر بأنه غير معقول .

وأعود أنا من سبحتي في برحة المروة !! وأفهم أن الحل غير صحيح فأركز ذهني جيدا ثم أقول :

ـ نضربها ياعم شاكر ؟

ـ تضرب ايش في ايش ياواد ؟

ـ نضرب عددين يكفوا ؟

ـ والعدد التالت فين يروح ؟

ـ بلاش منه .

ـ أنت لعاب ياواد .

ويوافق أبي أني لعاب .. وأني كذلك لا أنفع للتعليم .

ـ طيب اضربها ياواد وريني .

ـ خلاص أضربها ياعم شاكر .

ـ أضربها حتى أشوف .

ـ نقول خمسة في عشرة تساوي خمسين .

ـ وليش ما نقول خمسة في خمستا عشر أحسن .

ـ علشان ما أعرف الـ ٥ في ١٥ تساوي كم ياعم شاكر .

ـ طيب إذا ضربت خمسة في عشرة وصارت خمسين .

ـ إيش يعني ؟

ـ يعني نملي البركة خمسين مرة .

ويتحرك أبي في ملل ويهم بضربي ولكن العم شاكر يطلبه الصبر والأناة .

فيصيح أبي :

ـ لكن ياواد مين قال ان قصدنا نغلليها خمسين مرة ٠٠ نحن ما نبغي نغلليها إلا مرة واحدة ، يعني نغلليها في خمسين دقيقة ٠

ـ لا يابويا ٠٠ غلط ٠

ـ طيب هات الصحيح ٠

ـ نقسمها ياعم شاكر ٠

ـ نقسم مين على مين ؟

ـ تقسمهم كلهم على بعض ٠

ـ اقسمهم وريني ٠

ـ ما أعرف القسمة والله ٠٠ بس سمعت بها ٠ وينفد صبر العم شاكر فيختطف الورقة من يدي ويشرع فى حل المسألة بطريقة النسبة والتناسب ، ثم ينتهي إلى النتيجة وهي (دقيقتان وبعض كسور الدقيقة) فيكبر شأن العم شاكر في نظر أبي ويقول ٠ هذا كلام معقول ٠

وأرى أنا أنه كلام معقول ولكني لم أفهم كيف بدأ الحل ، وعلى أي حال انتهى ٠ وأنى لمثلي أن يفهم النسبة وتحصيلي في الحساب لم يفرغ من الضرب ٠

ويلتفت العم شاكر إلى أبي وهو يقول (لا تزعل ياعم محمد هو تعليم المدارس (بطال)!

إذا كانت حسبة ما زادت نتيجتها عن دقيقتين وكسور يعجزوا عنها ، هذا يسير تعلم ؟

فيوافق أبي مقتنعا بأن المدارس (ما فيها تعليم) والله العظيم تلاته ما فيها تعليم !!



(٧)

مع حفاظ القرآن

في هذه الأثناء كان الحسين بن علي قد شرع بتوثب للثورة على العثمانيين وشرع يجمع مشائخ الحارات في مكة وباقى مدن الحجاز ليقنعهم بضرورة الثورة على استبدادهم وظلمهم ويفرض عليهم الترتيبات التى يجب ان يتخذوها :

ـ « انت ياشيخ مكاوى عليك ان تجمع لى العيال المفاليح اللى في سوق الليل كلهم ‥ احنا ما نبغى نسويهم عسكر ‥ بس غرضنا الفزعة ‥ هادى البلد بلدكم ‥ واحنا ما نبغاكم الا تكونوا أسياد أنفسكم ‥ يعنى تحكموا أنفسكم بأنفسكم ‥ وأنا وأولادى فداكم ‥ تكفا يا أهل زمزم !! ترى هدا يومكم ‥ وانتوا يا مشائخ الحوائر من المعابدة الى جرول فاهمين الترتيب ؟ عند الله وعندكم كل حارة نجمع شبابها للفزعة ‥ ترى العسملى ناس ما يبغوا الا الحرية الكدابه ‥ يبغو نسوانكم بكره يمشوا زى الرجال عينى عينك ‥ ونحن ناس ديننا ما يقبل الا الحشمة ‥ ايش تقولوا ؟؟

ويلغط المجلس ‥ مجلس المشائخ ويضربوا الأرض بنبابيتهم : والله احنا دونك ياسيدنا ‥ واللى انت فيه احنا فيه ‥ والله كل شىء ولا حريمنا والا ايش تقولوا يامشائخ ‥ ها انت يا ابو صادق وانت يا ابو سراج ‥ ايش تشوفوا يا جماعه ؟

فيهيب المجلس . نحنا لا نشوف ولا شىء ‥ اللى سيدنا فيه نحنا فيه ‥ كل شىء ولا فضائح الحريم !!

وينفض المجلس ويتصل كل شيخ بكبار الحارة عنده ويبدأ (المطاليق !!) في ترتيب هادىء لا يشعر به الا بعض الاتراك الذين تتسرب اليهم الاخبار في مكة مضطربة مشوشة يعجزون عن تفسيرها .

ويطلق الحسين رصاصته الاولى في فجر يوم ٩ شعبان ايذاناً بقيام الثورة

فتزحف جموع أولاد الحارة الى اجياد ليحيطوا بقلعتها ويطلقوا النـار على من تحصن فيها كما يزحف غيرهم الى جرول ليحيطوا بالقشلاق وغيرهم الى الحميدية وبقية مراكز البوليس يعرضون عليهم النار أو التسليم واستسلمت المراكز الصغيرة في مكة في الثلاثة الايام الأولى من قيام الثورة ثم استسلمت القلعة بعد بضعة أيام واستسلم المحصنون في القشلاق على أثـر ذلك وشوهـد الجنـد العثمانيون يساقون أسرى الى حيث ترحيلهم ٠

واستسلمت حامية جدة وينبع ورابغ بعد لأي قصير ولـم تسـتعص على (اصحاب الفزعة) والحارة الا المدينة فقد ظلت حاميتها صامدة حتى بلغها سقوط الآستانة في نهاية الحرب العامة فطلبت الأمان ٠

وجند الحسين من (فزيعة) الحارات ألوفـاً دفعهـم الى الشمال فاشـترك بعضهم في حصار المدينة ومشى البعض الى الشام تسندهم قوات الحلفاء حتى تم فتح دمشق ونودى بفيصل ابن الحسين ملكا عليها ٠

وتتابعت الأحداث على أثر ذلك مما تجده مفصلا في مظانه من تاريخ الثورة العربية ونحن هنا لا يهمنا الى أن نعود (بفزيعة) الحارات الى مكة بعد أن تم للجيوش العربية من سائر الاصقاع فوزها لاجلاء العثمانيين من بلاد العرب الى حدودها الشمالية في أطنة تحت امرة فيصل بن الحسين ٠

يهمنا أن نعود (بفزيعة) الحارات الى مكة لنتابع الحسين في نهضته الجديدة وقد بدأها بتأسيس المدارس ٠

كنت أثناء ذلك من المواظبين على مدرستى التحضيرية في باب السلام رغم اعتقاد والدى بأن المدارس (بطالة) ، وقيل لنا ان دراستكم التحضيرية قد انتهت ، وان الحكومة ستنقلكم الى المدرسة الراقية في قلعة جبل هندى ؛ لتدرسوا العلوم العالية فلم أفهم جميع ما قيل لى ولكنى عرفت ان المدرسة فيها حركة ٠ وان (سيدنا) ينوى زيادة تعليمنا وكلمة (سيدنا) أصبحنا لا نطلقها في هذا السن على فقيه الكتاب الذى عرفناه فيما سبق بل هى لقب أصبحنا اليوم في

فتوتنا الجديدة نطلقه على الحسين بن على ملك البلاد ٠

وسمعت أبى في البيت يناقش خالتى (حسينة) فقيهتنا القديمة بعد أن أرسل في طلبها مستعجلا ٠ ويقول لها وجاءني مرسول من الشيخ غزالي رئيس مدرسة (الواد) يسألنى هل أوافق على نقل (الواد) في القلعة يقرأ علوم والا يخلوه في مدرسته يحفظ القرآن بالغيب ؟!)

(والله ياحسينه الواحد يحفظ القرآن بالغيب ٠٠ ينفع نفسه بكره أموت يقدر يقرا على روحى يكون الولد في محل ما فيه (ختمه) ايش يسوى يقدر يتلى من القرآن اللى في صدره زى ما يبغى ٠ والا ايش تقولى ياحسينه ؟)

وترى خالتى حسينة أن المسألة لها أهميتها فتطرق برأسها ملياً ثم ترفعه وهى تقول :

(مافش أحسن من حفظ القرآن بالغيب ٠٠ بكره لو احتاج هذا الولد بعد ما تغمض عينك يقدر يسوى كتاب ويقرى الاولاد ويجيب فلوس ٠٠ روح ياعم محمد اتوكل على الله وخلى الواد يحفظ بالغيب ٠٠ والا مقصودك يسوى عالم ؟!!)

ويعتدل أبى في جلسته وينفث دخان سيجارته (ياستى على مهله يسوى عالم !!٠٠ هو اذا حفظ اليوم (الختمة) وجودها يسير بكره أحسن من العالم ٠٠ اتوكلنا على الله) ٠

وهكذا بت في مصيرى وأنا على كثب من البرلمان المعقود دون أن أسأل في شىء ٠٠ والواقع أننى لو سئلت لعجزت عن فهم ما يسألون ولو فهمت لرجوتها تأجيل المناقشة ، واعطائى فرصة واسعة أتمتع فيها في برحة المروة وأروى حرمانى الطويل بالجرى والنط ومضاربة (العيال) ٠



(٨)

شيطان الفصل .. عباس

ونقلت المدرسة زملائى من الطلاب الـذين قيل إنهم فرغوا من التعليم التحضيرى الى مدرسة الراقية في قلعة جبل هندى ، وأمرونى وجماعة يبلغ عددهم الثلاثين أن نتخلف في مكاننا حيث أفردوا لنا غرفة جمعونا فيها وكتبوا على لوحتها (صف الحفاظ) ٠

وانتدبوا لنا الشيخ « اسماعيل ٠٠ » ليكون أستاذنا في تحفيظ القرآن ودراسة بعض مبادىء العلوم التى قرروا أن ندرسها الى جانب حفظ القرآن ٠

وعز على الشيخ اسماعيل أن يعترف بمبادىء العلوم التى قررها لنا المنهج وكلفه بها ٠٠ فقد كنا لا نزاول في فصله غير حفظ القرآن ان كان ما زاولناه عنده يسمى حفظاً ٠!!

يبدو لى أن الشيخ اسماعيل كان اول شيخ رأيته لا يعرف كيف يمارس أعمال الشخط ، والنرفزة ولهب الظهور بالعصى الرفيعة اللدنة ٠ ولهذا كان جزاء عمله بين طلابه أسوأ جزاء ينتظره طيب القلب بين طلبة أشرار آثمين ٠

كان شيخنا مصاباً بما يشبه الصداع في رأسه ٠

وأعتقد ان صداعه من نوع لا يخفف وطأته الا مزاولة العطاس ٠ لهذا كان يعد في جيبه أعواداً من الكبريت وشيئاً من القطن النظيف فاذا بدأ جلسة الصباح بيننا نسى وظيفة الحصة الأولى ، وشرع يلف القطن على عود من الكبريت الذى احضره لفاً رقيقاً تبدو نهايته رفيعة دقيقة ثم دسه في أنفه . وبالغ في ايصاله الى آخر ما استطاع ان يبلغ من خيشومه حتى يواتيه العطاس ٠٠

وكان اذا واتاه العطاس أنساه محيطه وتركه مشغولا بمنديله الملوث ، وعطاسه المتكرر العالى عن كل من حوله ، فكان شياطين الطلبة يغتنمون فرصة انشغاله بنفسه ويسرقون ماهيأ من اعواد الكبريت والقطن ، فاذا افاق من نوبة

العطاس ، واراد استئناف العملية بحث عن الاعواد والقطن فلا يجدها • فاذا طال بحثه دون جدوى حسم الامر في سكون ، وقام الى (صديريته) ليستخرج اعواداً وقطناً من جديد • دون ان يتكلف مناقشة من حوله فيا ضاع او يعنى نفسه بمنازعتهم •

وقد يشرع في لف عود جديد ، ثم يلتفت فاذا اعواده وقطنه الضائع على كثب منه فلا يسأل عن اليد الخفية التى مازحته • بل يكتفى بضم ما وجد كأن لا جديد في الأمر • فتتجاوب الضحكات الخافتة بين طلبته ثم تتقشع بصوت او اصوات مقهقهة فلا يزيد عن ان يلتفت الى مصدر الصوت او الاصوات : (ياولد •• عيب ياولد !!) ثم ينسى ما كان ويعود الى استئناف عملية انفه ليستأنف العطاس •

وكان يحلو لبعض المتشيطنين ان يداعبه او يداعب الطلبة فيعمد الى اصطياد بعض الذباب بيده ، ثم يجعل في مؤخرة كل ذبابة (قشة) رفيعة طويلة ، ثم يطلق الذباب في الغرفة ليثير الضحك بما صنع لها من اذناب طويلة • فاذا طرق سمعه الضحك وتلفت الى مصدره هدأ المصدر ، وانطلقت ضحكة غيرها في جهة أخرى • فاذا التفت الى الثانية هدأ صاحبها ، وانطلق ثالث في زاوية غيرها يضحك • فاذا شعر الشيخ ان المزاح قد ثقل ! وأن ترتيبه متفق عليه •• أطرق الى الأرض ، وراح يبحث عن قطن جديد يعالج به أنفه !!

فاذا أبت ذبابة مذيلة الا أن تحط على أنفه ، وترسل ذنبها من القش الى ما بين عينيه رفع يده ثم وضعها على (القشة) الذنب ، ثم عاد فاطلقها وهو يكتم ضحكة خافتة يخشى أن يسمعها الصبيان !

وتنتهى عملية القطن والأعواد والعطاس بانتهاء الحصة الأولى • فينشط لاعمال الحصة الثانية ويصيح بنا (مين حافظ ياولد) فيدعى أكثرنا الحفظ • وليس فينا صادق • ثم ينتقل أولنا ليجلس قبالته كما يجلس المصلي على ركبتيه ، ولا يشرع في قراءة ما استظهره حتى يكون زميله قد زحف في هدوء حتى يستوى

خلف الشيخ ، ثم يفتح المصحف على مصراعيه ليتابعه الحافظ عن بعد ويقرأ ما فيه موهماً شيخنا أنه يقرأ ما يقرأه غيباً • وتتكرر العملية بتكرار التلاميذ الذين ينتقلون لتسميع الشيخ ما حفظوا ، ويزحف زملاؤهم الى ما يلى ظهر الشيخ ليقابلوهم بالمصحف مفتوحاً تطالعهم فيه الآيات التى يقرأونها •

ويبدو أن مصلحة التلاميذ المشتركة في هذا الغش كانت تجمعهم على هذا التآلف والتساند ، الا أن الشذوذ الذى لا يخلو منه زمان كان يدفع بعضهم الى مسارة الشيخ بحقيقة الواقع تزلفاً أو نصحاً ، الا أن سيدى الشيخ كانت أخلاقه أكبر من أن تقبل الغيبة في الفصل ، فكان يعلن هذه الاسرار كما يعلن أسماء أصحابها : « صحيح ياواد عباس انتو اتفقتوا تفتحوا الختمة قدام بعضكم •• أنا أخبرنى حسين أبو قورة ، وسعد جانشاه ، لكنى ما صدقتهم حتى أشوف واحد فيكم يغش رفيقه وأنا أعرف كيف أربيه » •

ويغضب الواد عباس وهو قائد الأولاد في الفصل وصاحب كلمتهم •• يغضب لهذه التهم الجزاف !! ويتقلص ما بين عينيه ، ويتهدج صوته ، وترتعد مفاصله وتتزاحم الايمان الفاجرة على شفتيه في تمثيل بارع يأخذ فيه على الشيخ مذاهب القول ويملك عليه مواهبه ، فيطرق ملياً وهو يتمتم بكلمات كنا نعتقد أنه يطلب من الله فيها النجاة والعافية •

ويلتفت الواد عباس في حركة بارعة وأسارير ضاحكة الى زميله الواشى مشيراً اليه بما يحضره من اشارات الوعيد فيصيح الواشى •• « ياسى الشيخ •• شوف عباس يضحك •• ويقول لى اوريك شغلك » ولا يرفع الشيخ رأسه حتى تكون عضلات وجه عباس قد تقلصت ، وغاض الضحك بين صوته المتهدج ، وأيمانه المغلظة • فيؤخذ الشيخ بروعة ما يبدو على عباس ، ويسأل الاولاد « صحيح ياواد انت وهو كلام أبو قوره ، ولا كداب » فيدوى المكان بضوضاء المتبرعين بالشهادة الزور - « كداب ياسيدى الشيخ •• كداب أبو قورة » •

فيربح عباس الموقف ، ويأبى أن يجلس حتى يستأنف وعيده في اشارات

خافتة يوجهها الى أبي قورة • ولا يجد أبو قورة ما يشجعه على الكلام فيجمع أنفاسه ويتجمل بالصبر •

لم يكن عباس ولداً عادياً يقال في شأنه ما يقال في شأن الأولاد العاديين ، أو غير العاديين • بل كان بدعة من بدع الخلق وكان لا يضارعه في شقاوته او شجاعته أو براعة تمثيله ، أو حذقه في الدهاء مضارع •• وكان الى هدا ظريف المعشر خفيف الظل ، يهوى المشاكسة للعبث والضحك أكثر ما يهواها للشر •

كان يقود أولاد القسم قيادة تمنيت أن يوهب شيخنا مثلها ، وكان اذا بيت على (شقاوة) أذاعها بين اخوانه في شجاعة ، وتركهم يتمتعون ما شاء لهم الضحك دون أن يجرؤ ولد منهم على مناهدته الا اذا شاء أن يتعرض لوعيده كما تعرض له أبو قورة •

كان يعلن للاولاد بأن ريحاً تزمع الخروج في أصوات متقطعة تزيد في عددها عن العشرين فعليهم أن يحصوا عددها وألا يستخفهم الضحك حتى لا يتنبه الشيخ في مجلسه لحقيقتها •

ثم يبدأ خروج الريح حركة فحركة في أصوات متقطعة تبدأ خافتة ، ثم تشرع في الوضوح • وسيدنا الشيخ يصغي الى هذه الأصوات ، ولا يدور بخلده شيء مما يعرفه الأولاد • ثم يلتفت الى الميمنة مرة والى الميسرة أخرى (ايش هذا ياواد انتو سامعين) ويكتم الاولاد ضحكاتهم وينكرون على الشيخ ما يسمع ، أما عباس فان في مذاكرته ما يشغله عن العبث ، وفي ملامح وجهه ما يدلك على جهله بجميع ما يحدث •

ويهيب به الشيخ (انت موسامع هادى الاصوات ياعباس ؟!!)

ـ لاياسى الشيخ •• يمكن أذنك تخايلك ••

ويدعك الشيخ أذنه بخنصره مرة وسبابته أخرى ثم يتسمع فلا يجد أثراً للأصوات التى شاغلته ، وعندئذ يلتفت الى عباس المشغول بمذاكرته •

ـ معاك حق ياعباس •• أذنى في بطنها شيء ••

ومن وصايا عباس لاخوانه في الفصل « اذا ضرب الشيخ واحد فيكم عصاية واحدة فعلى المضروب أن يحط يده على العضو المضروب ويصرخ في شدة يرتفع فيها صوته الى سابع بيت كأن العضو قد كسر وقد لحق به خطر تالف .. وعلي انا اتمام الباقى » .

وهى من وصاياه الناجحة : لأن سيدى الشيخ اذا جرؤ مرة على ضرب أحدهم - وقليلا ما يجرؤ - راعته الصرخة التى تند عن المضروب فيرتبك عليه الأمر ويسقط في يده ، ثم يلتفت الى عباس كأنه يستفهمه الامر فيهرع عباس الى المضروب وبعد أن يمسح عليه برفق يقول للشيخ : (لا ، الحمدلله .. ما حصل شى كانت الضربة غلط .. الحمدلله على السلامه .. يتوب ياسى الشيخ) .

فيتناب الشيخ الوجل ، ويعود الى مكانه ويتمتم بكلمات لعله يطلب فيها السلامة والنجاة .

وكان عباس اذا حلاله أن يبدد ساعات اليوم في الفوضى عمد الى اخفاء فردة من نعال الشيخ في اللحظة التى يعرف ان الشيخ سيغادر فيها الفصل الى (بيت الراحة) فاذا افتقد الشيخ الفردة صاح « ياواد انت وهو مين شاف فردة النعل ؟ » فيبادر عباس بما عرف من نجدته في نظر الشيخ ليبحث عنها ؛ ثم يقدم نعاله الى الشيخ ليقضى حاجته الى أن يجد عباس الفردة ؛ فاذا قضى الشيخ حاجته وعاد الى الفصل وجد الفصل خالياً الا من شخصين أو ثلاثة بينهم عباس ، وهم يقلبون الحصير ويبحثون تحت الأوراق المهملة عن فردة النعل . فاذا قال الشيخ « ولكن فين راح الأولاد » تطوع عباس للاجابة « فرقتهم ياسى الشيخ للبحث عن فردة النعل . لأن بعض الأولاد في الفصول الثانية شياطين أخاف يدسوها » .. فلا يدرى الشيخ أيرضى عن تصرفات عباس ونجدته ، أم يغضب . ولكنه يدرى أن السكوت - على ما تعود - أسلم .

ويظل الأولاد بين داخلين في الفصل ، وخارجين منه حتى تتبدد أهم ساعات

النهار • وعندئذ يجدون فردة النعل ويربح عباس نتيجة الموقف •

ويلجأ عباس في بعض الاحيان الى بعض النقود التى يجعلها الشيخ تحت وسادته لتكون قريبة لما عسى أن يحتاج منها • فيخفى عباس منها نصفها فاذا سأل الشيخ مستغرباً ما حدث تطوع عباس باثارة الفوضى ، وأخلى الفصل من الأولاد الا شخصين يساعدانه في قلب الحصير ، وبعثرة ما تحته من تراب ، ولا معدى من العثور على النقود المفقودة ، ولكن بعد ان يكون عباس قد قضى حاجته من الساعات التى أراد أن يبددها •

وعلى هذه الوتيرة قضى فصل الحفاظ اغلب عامه الدراسى دون أن ينتفع لدراسته بشيء واذا كان بعضنا قد بلغ فيما استظهره عدة أجزاء من القرآن فانه ليس في هذا البعض من يستطيع قراءة ثلاث آيات دون أن يسارق النظر الى مصحف مفتوح •

ويبدو أن ادارة المدرسة شعرت بفشل شيخنا الطيب فأسرت اليه في مساء أحد الأيام بما لا نعلم ، فسكت على مضض حتى اذا آن أوان الانصراف قام على غير عادته يودعنا وفي آماقه من الدموع ما أثار أحزاننا وأبكى عميدنا عباساً بكاء دل على مبلغ شعوره (الرقيق !!) وكانت تلك الأمسية آخر عهدنا بالشيخ اسماعيل•

وقد علمنا فيما بعد أن عميدنا عباساً كان يزور الشيخ في خلوة بجوار باب الدريبة ، ويمده بمساعدات خاصة كان يختلسها من دكان أبيه •

حفظ متقن

وما كدنا نبدأ حصتنا في اليوم الثاني حتى صافحتنا قامة المدير المديدة تتبعها قامة لا تقل عنها طولا ، وسمعنا المدير يقول : تفضل ياسى الشيخ ٠٠ ياواد انت وهو ٠٠ لا يوصلنى خبر عن أى واحد يقل الأدب منكم !٠٠ سامعين والا لا ٠٠ تفضل ياسى الشيخ) ٠

وتفضل الشيخ أحمد زهر الليالى ، وجلس في صدر الفصل مكان الشيخ اسماعيل وبادره صاحبنا عباس : صبحك الله بالخير ياسى الشيخ ٠ (احنا هنا تحت أوامرك) ٠ ولكن الشيخ لم تعجبه الكلمة وداخله الريب في جرسها ، فالتفت في هدوء الى حيث كان يجلس عباس ؛ وحدجه بنظرة طويلة شعر بنفوذها الى أعمق أسراره فاختل توازنه ، واستشعر الفتور في كل عضلة من أعضائه ٠

وبدأ الشيخ يسألنا عن القدر الذى استظهرناه من المصحف فاذا أجابه أحدنا أمره بالجلوس بين يديه ، وكلفه بقراءة آية ، أو آيات مما حفظ ، فأغلق على جميع من في الفصل ، ولم يستطع أحدنا أن يثبت أنه مر بآية واحدة من الآيات اى يجرى الامتحان فيها ٠

أما عباس عميدنا الشقى فقد شعر أنه في حاجة الى أن يتقلص وأن يكتم أنفاسه حيث يجلس ؛ حتى لا تنم عنه نأمة ، او تدل عليه حركة ٠

وانتهى الشيخ من فحصه في لحظات كانت جديدة في حياة فصلنا بما شاع فيها من وجوم ، ثم استوى واقفاً وشرع ينقل خطاه في تؤدة بيننا ، ويسدد نظراته الثاقبة الى كل جماعة منا كأنه يستنبىء الملامح ما خفى من حقائقها ، ويستنطق العيون ما دق من أسرارها ٠

وعندما أولانا ظهره ليعود الى مجلسه لم يجرؤ أحد منا على متابعته بالنظر كما لو كان لظهره عين تحصى علينا الحركة والاشارة ٠

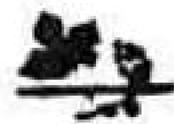
واخذ مكانه من المجلس ، وطفق يملي أوامره الجديدة (نحن لم نحفظ الى اليوم كلمة واحدة من القرآن • سنبدأ دروسنا من (بكرة) من أول سورة البقرة •• يجب أن يحفظ كل واحد منا صفحة كاملة حفظا متقنا •• أتسمعون !؟ حفظا متقنا !•• ياولد ؛ أنا لا أقبل أكثر من غلطة واحدة في جميع الصفحة •• أتسمعون ؟!!)

وقد سمعنا •• سمعنا مرغمين وعلمنا الارغام كل معانى الاصرار فأصبحنا نبكر الى الفصل وفي أعماقنا حركة دائبة أما شفاهنا فلا تتحرك الا بتلاوة الصفحة المطلوبة منا •

وتقاعس بعضنا ، فعلمهم الشيخ أدق المعانى التى تحويها معانى التقاعس وأذاقهم ما بدد أحلامهم في الحياة التى كانوا يعيشونها قبله •

أما عباس فقد تقلصت عمادته ، وتضاءلت جرأته ، وتبخرت قدرته على التفكير في كل الحيل التى كان يزاولها ، وأصبح يرى وهو يتخطى عتبة المدرسة داخلا اليها يتمتم بكلمات يتحصن ببركتها من بأس الشيخ ، او يكرر في سره حصته من القرآن في ذلك اليوم •

أما بعض (البلداء) فقد آثروا كى أقدامهم في بلاط المسجد الحرام وقت القيلولة ليدمغوا جلدتها السفلى ويعدوها لتحمل وطأة الخيزارن كلما جدّ أوان الجلد •



(١٠)

في المدرسة الراقية

قضيت نحو ثلاث سنوات في استظهار القرآن غيبا حتى اصبحت من حفاظه الممتازين واستطعت ان احقق في امتحان نهاية السنوات الثلاث درجة طيبة أهلتني للنقل للصفوف التي تدرس العلوم على انواعها في المدرسة التي سموها راقية ·

ورأيتني اشعر وانا اختلط بالزمرة الجديدة من الطلبة أن مستواي في الفهم واستيعاب ما يقرره المدرس ادنى بكثير من مستوى زملائي ·

ولعل لتطرفي في اجهاد حافظتي أثراً في الضغط على بعض التلافيق في رأسي بصورة عطلت وظائفها في الفهم فابتكرت لنفسي اسلوبا اقيد به حاصل الشروح التي يلقيها استاذ الدرس ·

كنت اعمد الى (فرخ الورق) من القطع الكبير فاسجل في زاوية منه اكثر ما يشرحه الاستاذ بالفاظه وحروفه في اكثر الاوقات كما اسجل في زاوية اخرى لاستاذ آخر ما يقوله بنفس المنوال واستمر على ديدني هذا في اكثر الدروس حتى املأ القطعة من الورق على كبرها بعشرات الشروح بعد ان اعنون كل شرح في زاويته بما يدل عليه.والطريف في الامر اني كنت اذا امتلأ (فرخ الورق) من جميع جهاته كتبت في رأسه (جريدة سباعية تصدر عند اللزوم) ·

ولقد ساءني هذا بقدر ما نفعني فقد كان استاذ الدرس لا يكاد يوجه سؤاله عن اي معنى شرحه في درس سابق حتى ابادر قبل غيري بالاجابة اعتمادا على ما كتبت اجابة لا تخرج عن النص الذي تلقيته منه بحروفه والفاظه فربما سره هذا وهو لا يدري انها اجابة آلية كنت لا افهم مما تعنيه حرفا واحدا وبهذا ظللت في منأى عن اكثر ما يفهمه غيري في اكثر الدروس كما اسأت من حيث لا اقصد الى بعض زملائي الذين كانوا يستسهلون الاعتماد على جريدتي !!

على ان هذا لا يعنى أن دراستنا كانت تحفل كثيرا بناحية الفهم فقد كان التحفيظ ركيزة هامة من ركائز التدريس فكثيرا ماكنا نكلف بحفظ المتن والشرح وما يتبعهما من تعليقات ..

حتى المحفوظات الادبية كان لا يكفى ان نحفظ نصوص الابيات بل لابد ان نحفظ ما يتعلق بها من مقدمات تنعت الشاعر وتصف ميزته في الشعر وقصة الظروف التى دعته لقول ما قال ثم ما يتبع ذلك من هوامش توضح معانى الابيات وتفسر ما غلق من الفاظها فكنت اعانى من بلادة ذهنى في الحفظ ما لا يعانيه غيرى وان كانت اكثر معانى القصيدة تعلق بذهنى اكثر مما تعلق الابيات نفسها .

وما كنت ارتاح لشيء ارتياحى لفن الانشاء لخلوه من عنت الحفظ .

وكان للانشاء عندى دفتر خاص اجمع فيه مايلذ لى جمعه من قراءاتى في سيف بن ذى يزن وقصة حسن البصرى والسبع البنات وكتاب فتوح الشام لاختلس منه ما يتناسب والموضوع الذى يكلفنا به مدرس الانشاء .

وانى لاذكر انى سمعت خالتى حسينة فقيهتى في نشأتى الاولى تترنم بكلمات قالت فيها :

ـ الدهر هبة بعد هبه

ـ هبة في العلالى

ـ وهبة في الهجبه

ـ وهبة تأكل لحم ضانى

ـ وهبة ولا حبه

فلذ لى معنى ما قالت واسرعت فسجلت ذلك في دفترى حتى كانت حصة الانشاء وكان موضوعها (غدرات الزمان) فانشأت اكتب ما اعرفه وختمته بهذه الابيات فما كاد مدرس الانشاء يقرأها حتى هزه معناها وصاح بالطلبة ان يسمعوا ما كتبت فكان يوما مذكورا نجحت فيه على اكثر الطلبة الذين كنت لا أدانيهم

براعة ولا فهما ولا كفاءة في الحفظ ٠

واني لاذكر انني رغم عجز موهبتي في الحفظ استطاع مدرس اللغة العربية بما ملك من صلاحية واسعة في استعمال العصا ان يلزمني بحفظ متن الاجرومية فحفظتها عن آخرها وان كنت لا اكاد احفظ الجزء حتى انسى ما قبله ولكن ملاحقته التي لا تفتر أبت ان تطوع حافظتي قسرا لما يريد ٠

وابت الصدف في العام الدراسي الذي يليه الا ان يكون نفسه يدرسنا في اللغة العربية فعرف كيف يلزمني بحفظ ألفية ابن مالك ولكنه لم ينجح نجاحه في تحفيظي الاجرومية، ذلك اني حفظت بعض اجزائها وعاندته في بعض آخر فحاولني بكل الوسائل التي يملكها فاصررت على العناد او ان شئت فقل كنت اعجز من ان اطاوعه فيما يريد فمالبث ان سئم وتركني لعنادي ٠

والذي يجب ان اعترف به انني رغم ما عانيت في حفظ الاجرومية ورغم ما استطعت حفظه من ألفية ابن مالك عشت لا ادري ما جدوى ما احفظ ولا اعرف شيئا عن مدى علاقته بتقويم لساني بل لا اعرف مبلغ حاجة لساني لان يقوم ٠

ليس معنى هذا ان استاذ النحو كان لا يشرح لنا معاني ما حفظنا ولكن تلافيف الحفظ في دماغي اتسعت اكثر مما يجب لطول ما استعملتها فاخذت مكان غيرها من التلافيق فعطلتها عن وظائفها في الفهم فاصبحت عيا في فهم ما يشرح ٠ ثم ما لبثت تلافيف الحفظ ان كلت وعجزت ٠

ولبلادتي في الفهم تقدمت السن بي دون أن أحصل على حصيلة تستحق الذكر في علم النحو ولولا اني شعرت بعد سنوات انني فقير فيما يقوم لساني فاضطررت لقراءة كثير من الشروح لظللت الى اليوم لا اعرف الغرض من علم النحو ٠

ومما يضحك أنني على اثر هذا لجأت الى شيخ من شيوخ النحو كانت تربطني به صداقة متينة ورجوته ان يتفضل باعطائي درسا في النحو فلم يبخل بذلك ولكن صفاقتي ابت عليّ ان استمر فقد تراءى لي بعد الحصة الاولى والثانية

انه يسهب في تفريع الفروع وتنويعها فقام في ذهني بعد ان راجعت حواشي الكتاب واستوعبت ما يعنيه ان في الامكان تبويب الموضوع بشكل اقصر فجئته في حماس فاتح القسطنطينية اعرض عليه الفكرة في غرور الشاب المراهق الذى يشعر انه لا يدانى في الفهم .

فما ملك ان رمى الكتاب في وجهي - « قوم من فضلك .. شوف لك واحد غير اتفلسف عليه .. انت رجل منت حق تعليم انت !! » فقمت .

قد يتراءى لبعضهم أن يسألني : « ولكن كيف يتهيأ لمثلك ان ينجح في الاختبار »

الواقع ان لطيبة القلوب التى كان يتمتع بها اكثر مشائخنا دخلاً كثيراً في نجاح اكثرنا ..

لم يكن الاختبار تحريريا الا في مواد خاصة كالخط والحساب وما يشبهها اما بقية الدروس فيجرى اختبارها شفويا يجلس الشيخان او الثلاثة على كراسيهم ويحضر التلاميذ :

- مين ابوك ياشاطر ؟.. او هوه اعرفه والله رجال طيب ها بشرني حافظ التاريخ .. كيف بلبل ؟ ها سمعنى ياشاطر كيف كانت وقعة القادسية .. لامو كدا .. لا تتربش .. على مهلك .. ارجع من الاول .. لا باين عليك البارح ما رقدت .. ايوه ارجع ثانى مرة .. برضو حفظك مو مضبوط ها ياشيخ اسماعيل ايش تشوف نحط له بس ٦ من ١٠ لا ما عليه .. زيده كمان نمره أبوه رجال طيب ..

- ها ازيدك النمرة لكن بشرط تحفظ ..

- ايوه ياسى الشيخ الله يرحم ابوك خلى لى هيا بس ٨ والا ٩ الله يعافيك .

- والله ما أدرى

- ها ايش تشوف ياشيخ عمر ؟

- زى بعضه ياسيدى .. بلكى يتشطر بعد كده ويسير رجال ..

هذا لون لا يتعمدون فيه الغش فقد كانت فطرتهم سليمة تقودهم من حيث لا يقدرون الى ما يعتقدون خيرا لطالبهم الممتحن المربوش ٠٠ اللى ما رقد البارح !! ما كان الرجل منهم رجل بوليس يتعقب من يقع في الفخ كما هو الحال في بعض الحالات التى تمر اليوم ببعضنا ٠

والطريف في الامر انى اذكر شيخا من جلة علمائنا كان يحضر دروس الامتحان كمختبر فاذا سأل الطالب عن مسألة وبدأ الطالب يجيب ٠٠ تابعه بحركة شفتيه وربما سبقت الشفتان الى السياق فكان الطالب اذا وقف به جواد القول يستطيع ان يتابع حركة شفتى الشيخ من حيث لا يدرى فتتضح له معالم السياق ٠٠

اولئك اشياخى فجئنى بمثل طيبتهم وحبهم لخير الطالب وما كان اعتمادهم على العصا الا ليقينهم انها اداة التقويم الوحيدة ٠



(١١)

ستي

وأحسبنى أطلت في استقصاء ما أحاط بى في المدرسة ، ومن الخير أن أنتقل الى ماأحاط بي في البيت مما ترك أثره في حياتى ٠

كان أبى - كما اسلفت - قد طبعنى رغم حبه لى على قسوة الحياة لأن حب الأبناء ما كان يعنى في نظر جيله غير الصرامة والالزام كانت أوامره - رحمه الله - لا تقبل النقاش ، وكانت آراؤه يقصر عنها الجدل : وكان جميع ما يبلغه من شقاوتى في البيت أو الشارع أو المدرسة لا يقبل دفاعى فيه ، ولا يبيح لى في شأنه تفصيل الملابسات التى تهون من وقع الحادث أو تخفف من عقوبته ٠٠ ولأن ذلك في نظره فصاحة أو (فصعنة لايقرها الأدب العالى!!)

وكانت لأبى عقائد في الحياة لا هوادة في شأنها ٠ فمذاكرة الدروس والاكباب عليها لا يجب ان تحدد بأوقات وتقاليد لف العمامة ، وطريقة ربط الحزام وكيفية انتعال (المداس) وشكل ارتداء الكوفية كل هذه أشياء يجب أن يساير فيها الوضع العام ، وأن نحترم عادته في شأنها ٠

وكان لمجلسه أدب خاص ٠٠ فجلوسى أمامه يجب الآ يتغير عن الوضع المعروف عندهم بالحشمة ، ويجب ألا يستثيرنى الحديث فأنبس بكلمة ٠ أو أناقش في رأى ، أو أضحك لاقل مناسبة بحضوره فذلك سلوك لا يتفق مع الأدب العالى كذلك !!

وقد تركت هذه الآداب في نفسى أكثر من عقدة فاذا رأيتنى اليوم أمقت التقاليد ، ولا أتقيد في المجالس الكبيرة بأدابها الخاصة الامكرهاً ، وأتميز عن كثير

---

(٥) ذكرت أن الحجازيين يطلقون كلمة «ستي» و يريدون بها الجدة للأب أو الأم، ونحن ابتداء من هذا الفصل قد نستطيع التقيد بوضع لفظة «ستي» بين قوسين دائماً كما تقضي العادة الجارية.

من غيرى بكثرة الكلام ، وشدة اللغط وقوة المراس في الجدل ٠٠ فذلك أثر الشعور بالنقص الذى أحاول أن أعوضه باللجاجة وحب الانطلاق ، والنفورمن القيود العامة ٠٠ أما أمى ٠ فقد كانت مسكينة لا تتميز بشىء ، ولا تترك في غيرها أثراً ويبدو أنها رحمها الله مشغولة في التوفيق بين عطفها على ؛ واحترام ارادة أبى في تقويمى ٠

وعندما توفى والدى وتركنى لها ٠٠ قضت حياتها حائرة في انتهاج السبيل الذى يوفق بين ضعفها وتهذيبى ، ورأيتنى أستغل حيرتها فأتخطى الحدود ، واستمرىء الانطلاق ، ثم أستوى على عرش البيت ، وأفرض ارادتى على الضعفاء والحائرين ٠ وتلك هى عقدة النقص التى تركتها في نفسى حياة القسوة والقيود ، والتى اندفعت بتأثيرها أول ما استطعت الاندفاع في حرد لا تقيده الضوابط ، ولا تضبطه القيود ٠

واذا قيل ان الخيوط الدقيقة التى يغزلها الطفل اثناء شيطنته سينسج منها اذا كبر أهم مقومات رجولته فان رجولتى الى اليوم لم تكمل لها ـ فيما أظن ـ الا بعض المقومات التى يعتقدها علماء النفس فهل في الغيب ما هو العن ؟

وصادفتنى في هذه الفترة التى تخطيت فيها الحدود ، واستمرأت الانطلاق ٠٠ مدرسة لها لونها وطابعها ومنهاجها في التأثير ٠٠ تلك هى مدرسة (ستى) ٠

كانت ستى (جدتى لأمى) قد عاشت حياتها الاولى مضطهدة في بيت زوجها ٠ فلما أطلق قيادها بموت زوجها عنيت قليلا ببناتها منه ، ثم زوجتهن وتحررت من كل ما يقيدها في الحياة وأخذت على عاتقها أن تتسلى فيما بقى من عمرها بسجادتها وسبحتها ، وتلاوة الأدعية والابتهالات التى كانت تحفظها عن ظهر قلب ، تلقتها عن العجائز اللواتى كن يخالطنها في (حصوة) النساء بالمسجد ، أو خلف (حلقة العالم) بجوار زمزم ٠

كانت تحدثهم عن الصالحين الذين يمتطون متن الهواء باجنحتهم والمقربين

الذين يطوون البحر بأقدامهم ، وأصحاب الخطوات الذين يصبحون في مكة ليمسوا في القدس ، ويبيتون وراء جزر واق الواق •

وكان لها رأى خاص في (المدركين) بأركان الأرض ، والمشرفين على أحوالها • وكانت تحفظ من حكاياتهم ما يثير العجب • فاذا آنست انكاراً لما تروى ، أو ارتيابا فيا تقص ، جمعت سبحتها بين يديها ، وتوجهت الى الله بقلب واجف ألا ينزع الايمان من الصدور ، والتقوى من القلوب •

سمعتها مرة تقول ان أحد المتكبرين راعته ـ وهو يصلى في المسجد ـ وساخة جاره الفقير في الصف فاشمأز • فأراد الله ان يعاقبه ، فسلط عليه الحدث فخجل من الخروج من المسجد المكتظ الى حيث يجد ماء يتوضأ • فنظر الى جاره الفقير ثم فتح كمه بين عينيه • فشاهد المتكبر في الكم طريقاً نافذة ! مضى فيها الى حيث وجد متوضأ جدد فيه وضوءه ، ثم عاد • فلما انتهت الصلاة تعلق بالفقير وقال له انني أرجو سماحك كما أرجو أن أكون تابعك أضع عنقى حيث تضع رجلك • فقال الفقير : اذا كان ولا بد أن تعلم فاني خادم عند احدى المومسات • فقال اني قبلت متابعتك الى حيث تخدم فلما رافقه الى بيت المومس وتطلعت من نافذتها لتراهما قالت للفقير •• هل أذعت السر اذهب فأنت مطرود •

تقول ستى في تعليقها على القصة : ان المومس كانت من الصالحات والمقربات وانها اذ تبيع جسدها للشهوة لا تريد الا التظاهر بما يحقرها في نظر الخلق ، ويقربها الى الخالق •

فاذا قلت ياستى لو وليناك حاكمة ؛ هل تقيمين الحد على مثل هذه الزانية أم تتركينها ؟ وتتركين مثلها خشية أن تكون من الصالحات المتظاهرات بالفجور ؟

كنت أقول هذا فتصرخ في وجهى مستاءة : « يا ولدى لا تعترض تنطرد » •

واذا قلت : ياستى ان هذا الفقير ألا ينهاه الدين عن الوسخ الذى يتقزز

منه الناس ؟ ويأمره بالنظافة ؟ قالت : (ان ربك رب قلوب .

فاذا قلت : ولكنه أمر بالنظافة ، صاحت في وجهي (قم من قدامي ياقليل الحيا ، أنت ولد مجادل بطال) وكان استياؤها يزداد كلما جادلتها في أمر . ولكنها كانت تحبني رغم جدلي ، وكانت تميزني دون بقية أحفادها بقصصها المخرفة . وكانت في بعض الاحايين تضحك ملء رئتيها من عقليتي الصغيرة وتسميني (الواد المتفلفس !!)

كانت تحفظ عن ظهر قلب اكثر سور جزء عم بالاضافة الى سورة يس . وسورة الواقعة . وكنت اذا سمعتها تقرأ فاض اعتزازي بنفسي - كقارىء حافظ - وشرعت أصلح لها كل كلمة تنطقها وأراجعها في كل حرف تحفظه . وكنت أقول ياستي ان ما تقولينه ليس قرآناً لأنه ليس فيه كلمة صحيحة النطق . فكانت تسمع مني ثم لا تلبث اذا أعياها اخراج الحروف كما أنطقها أمامها أن تطردني (قم ياواد ربك رب قلوب !) .

وكانت الى جانب معلوماتها تلم بكثير من قصص التاريخ ومن قصصها في التاريخ أن منارة باب الوداع كانت في عهد النبي ﷺ قائمة في باب السلام . فلما دخل النبي ﷺ من باب السلام الى طواف الوداع مشت خلفه وعندما خرج من باب الوداع كانت تتبعه . فلما التفت ورآها سألها أين ؟ قالت اني ذاهبة الى حيث تذهب ! ولكن النبي أبى عليها الذهاب . فبقيت في مكانها تبكي الى اليوم ؛ وكان من علامة بكائها أن نقوشها انمحت ولم ينقشوها بعد ذلك دون سائر المنائر !!!

وكنت لا أدري أن المنائر لم تحدث الا في وقت متأخر عن عهد النبي ، لهذا كنت لا أجادل الا في أسلوب المشي ؛ لأني لا أرى للمنائر أرجلا تصلح للمشي . وتدعو الله لي أن يهديني ثم تعيد لازمتها : (قم ياواد ربك رب قلوب !)

ومن قصصها أن عين زبيدة في مكة متصلة بنهر دجلة في العراق لان زبيدة

زوجة الرشيد عشقها ملك الجان فاقترحت عليه عندما حجت أن يسقى مكة من نهر دجلة فجمع الجان لبناء القنوات في العراق الى مكة فجرى الماء اليها في ليلة واحدة وبقى يسقى المسلمين الى اليوم ٠

ومن قصصها أن رجلا وقعت عصاه في بئر بمسجد المدينة فوجدوها في بئر زمزم بمكة المكرمة لان ماء زمزم يختلط في يوم نصف شعبان بماء الكوثر في الجنة فيطفح البئر ويظفر الشاربون ليلتها بماء مصدره الجنة ٠ كما أن قصصها تبحث النيل في مصر فهو ينبع من قبة على حدود الجنة ٠٠

وكان إلمامها يتسع لكثير من شؤون الدنيا والدين فكانت تقول ان النصارى يلبسون (البرانيط) لغرض خاص ٠٠ فهم لا يريدون رؤية السماء حتى لا تلين قلوبهم للاسلام لهذا يسترون عيونهم عنها بحافة البرنيطة ٠ وتقول : ان المراة المجوسية اذا اشتد الطلق في ولادتها وارادت ان تهرع الى الله جيء اليها بقربة ضيقة الفم وضعتها بين شفتيها وصاحت (يا الله) ، ثم أطبقت على الفم وابعدت عنها القربة حتى لا تدركها نفحة من لفظ الجلالة تهديها الى الاسلام ٠

ومن احاديثها ـ عفاالله عنها ـ قصة الثور الذى يحمل الأرض على قرنه ، فاذا تعب احد القرنين نقل حمله الى القرن الثانى فتكون الاهتزازات والزلازل ٠

ومن معلوماتها حديث الجزر التى يسمونها واق الواق وتقول : ان في أشجارها طلعاً يشبه رؤوس المخلوقات ، لا ينفك ينادى (واق الواق ٠٠ سبحان الملك الخلاق ، وكانت تجوز على مثل هذه الحكايات،ومن الغريب أننى وجدت فيما بعد أن بعض الكتب المؤلفة كانت تروى هذه الحكايات ، وتصوغها في قوالب تغشاها مسحة الصدق ، وتسندها بهتانا الى أجلة من علماء الرواية والحديث ٠

وكانت رحمها الله تنهى عن كنس البيت على أثر خروج المسافر منه لان ذلك يمنع عودته ، وتوصى بصب الماء خلفه في اللحظة التى يخرج فيها من الباب لان الماء أمان !! وكانت تنهى عن غسل الثياب يوم الاثنين لان صحابيا فقد ولديه على أثر الغسل يوم الاثنين كما تنهى عن خياطة الثوب فوق لابسه أو كنس البيت

اثناء الليل أو شراء الفحم في شهر المحرم لان ذلك كله (بطال) ٠٠ (وبس بطال) فاذا قلت (ياستى) لم هو (بطال) صاحت في وجهي : (ف ياولد ٠٠ انت متفلفس) !!!

احنا ناس زى ما نسمع من الكبار !! نقول طيب وما علمت رحمها الله ان مأساة المسلمين في بعض كبارهم الذين ظلوا يسمعون منهم وهم يقولون طيب !! دون أن يناقشوا حقيقة هذا الطيب أو يبحثوا مصادره الصحيحة ٠٠

وكانت ستى تفرض على كل من يخلع سنه من احفادها أن يرمى به الى وجه الشمس وهو يهيب ياشمس ياشموسة خذى سنى ٠٠ واعطنى سن العروسه !!

وكانت رحمها الله تحفظ لكل مناسبة قصة ٠٠ تروى بعضها عن الانبياء وأخرى عن الأولياء ، وغيرها عن غيرهم وكانت قصصها تمتاز بالمبالغات التى تشبه هوايتها المتطرفة في المغيبات وما وراء المحسوسات ٠٠ كانت تقص عن الخضر عليه السلام آلاف القصص التى يحفظها عجائز جيلها ؛ وليس فيها ما يثبت في النقل أو يخضع للعقل ، ولكنها مجذوبة ترضى وجدانها ، وتناقق أعصابها كما يفعل المتفيقهون من أصحاب الأفهام المكدودة والاذهان الضيقة ٠

وكانت تحدثنى عن الملائكة والجن أحاديث لا أدرى كيف توافرت لها مع أميتها ٠ وانه ليأخذنى اليوم العجب من تلك الحافظة التى استطاعت أن تعى كل هذه المعلومات ، وأجدف على الظروف التى لم تهيىء تعليمها على أسس صحيحة ٠ وأسائل نفسى : ترى أى مدى كانت تبلغ من العرفان لو تهيأت لها دراسة مستقيمة ؟؟

ـ أكبر ظنى أنه سيسوي منها عالمة من أروع المتعلمات ، وأن ربح أولادها وأحفادها من معارفها سوف لا يوازيه ربح في الحياة ، ولكن سوء الحظ الى جهل المسؤولين عنها أبى الا أن يترك ظروفها عاطلة من أسباب التعليم وان يحيطها بالمنهل الوحيد الذى نهلت منه معلوماتها الخاطئة وخرافاتها الضالة ، وتركها تهيىء أولادها لأسوأ ما يتهيأ له الناشئون ٠

وكانت ستى تعرف عن (الدجيرة) و (هول الليل) و (السبع الجنيات) مالا يعرفه قصاص نابغة ! فكنا نقضى حولها الليل وعجائبه في صور تركت في تربيتنا أسوأ الآثار ، وملأت أعماقنا بالعقد التى عجزنا الى اليوم عن حل أكبر طائفة منها ·

وكنت أجد في استعدادها للتخريف أوسع فرصة ألفق فيها ما شاء لى التلفيق ، وأخترع لها ما يحلو لى من اختراع ··

كانوا يكلفوننى ببعض الخدمات في الليل خارج البيت ، فكنت لا أعصى ، لكنى لا أكاد أخرج الى (طرف الزقاق) حتى أتصنع الذعر ، وأعود الى البيت لاهثا ؛ لأنى (رأيت الدجيرة بعينى تنادينى ! ·· تعال ياولدى ·· تعال ياحبيبى ·· ورأيت احدى رجليها تشبه رجل الحمار) ·· أقول هذا على مسمع من (ستى) لأن ثقتى في أعصابها المتوترة لا تعادلها ثقة · فلا أكاد انتهى مما ألفق حتى تأخذنى في أحضانها تم تهيب بهم (والله صحيح أوصاف الدجيرة !· لا ترسلوه مرة ثانية اذا أظلم الليل وخلونا مستورين !!) وهكذا انجح فيما لفقت على حساب اعصاب ستى !! وانجو من الخروج اذا تكاسلت عن الخروج !!

وعلى حساب أعصاب (ستى) انتفعت بالكثير ، فقد كنت اذا أغضبنى أحد في البيت تصنعت ما يشبه التشنج ، وأتيت ما يشبه حركات المجانين حتى اذا هدأت أسررت الى (ستى) أننى أرى شيئا يتراقص بين عينى اذا غضبت · فلا تلبث أن تتأوه حزنا على وتقول لى : (هذا أخو راسك لا يحب الزعل) وبذلك أشاعت ستى ان لراسى اخا لا يحب الزعل !! وراحت تمنع كل من في البيت من ازعاجى · فأصبحت سيدا في البيت عتيا ·

ومرضت المسكينة مرة فكانت لا تطعم غير ماء زمزم ، فكنت مكلفا بحمل الدورق الى المسجد لملئه بما زمزم اكثر من مرة في اليوم فلما طال تكليفى وارهقت صورت لى (شقاوتى) ان استفيد من أعصاب (ستى) فجئتها مرة وأنا الهث من الفزع ولا أكاد أفصح الحروف من شدة مانالنى وقلت (ياستى) رأيت يداً

تمتد من الجدار المحفور بجوار باب الدرج في المكان الذى نضع فيه المفتاح الكبير رأيتها بعينى تمسك الدورق الذى ملأته لك من زمزم وتقبض عليه فسحبته بقوة وجئت أجرى !!

فقالت ـ (ياولدى : قلت لك ان عيونك كشافة وصاحب اليد لابد من الشياطين الذين لا يحبون ماء زمزم !!)

قلت : (ولكن اليد تشبه يد الشيخ (٠٠٠٠) تمام الشبه !! ٠

وكان الشيخ (٠٠٠٠) الذى أردت الاشارة اليه من أقرباء (ستى) . وكان قد حدث بينه وبينها بعض النفور رغم أنها تعتقد صلاحه ٠٠ فتنهدت ستى وقالت : (نعم ياولدى ٠٠ هو زعلان منى ، ولابده ما يبغاك تجيب لى زمزم ٠٠ على كيفه !٠٠ والله أنا أحبه ، ويشهد على ربى أنى سامحته ٠٠ وأنت بلاش تجيب زمزم حتى أشوف خاطر الشيخ)

وهكذا أبت (شقاوتى !) الا أن أحرم (ستى) من شرب زمزم طعامها الوحيد يوما كاملا حتى تهيأ لها غيرى واسترحت ٠

ولا تستطيع (ستى) أن تفرق بين منع ماء زمزم اذا أحضرته أنا . واباحته اذا أحضره غيرى ! ولا تعرف هل زعل الشيخ كان لمنع ماء زمزم : أم لمنعى شخصيا من حملها !٠٠ لا تستطيع المسكينة أن تميز هذا ، لأنها تمضى فيما تعتقد بدافع من أعصابها الحادة ٠ أما عقلها فليس له مجال في كل ما تعتقد شأن المجذوبين الذين ورثت أعصابهم ما اعتقدوه ؛ فأغلقوا أفهامهم عن مجال العقل فيما ورثوا ٠٠

تلك هى مأساة المسلمين في كثير من عصور التاريخ . قبل أن تكون مأساة (ستى) !! حدثت ستى مرة فقالت : كنا مدعوين ليلة في الزاهر ، فجاء ولدى بحمار لأركبه الى الزاهر ، وكان الوقت بعد العشاء الاخير . فلما ركبت الحمار ومضى ولدى يمسك بقياده مضينا حتى انتهينا الى نهاية العمران من مكة ؛ فشعرت بالخوف يراودنى لخلو الطريق من المارة ، فأمرت ولدى أن يقف بى عند قبر الشيخ

محمود بن الأدهم ، ثم قرأت الفاتحة له ، وقلت ما في قلبى !! ومضينا ؛ فلم نبعد الا قليلا حتى راعنى بدوى حاسر الرأس حافى القدمين ، يواكب سيرنا كأنه مكلف بحراستنا فزاد رعبى لما رأيت ، ولكنى تجلدت وصار البدوى يلازمنا دون أن ينبس بحرف ، حتى انتهينا الى الزاهر فاختفى ·

قلت ياستى : هل علمت أن ولدك كان يرى البدوى الذى كان يلازمكما ؟ قالت : انى سألته فأكد أنه لم يره فكنت أعجب لمثل هذه الظاهرة · ولكنى اليوم لا أرى مكانا للعجب بعد أن ثبت لى أن أعصاب ستى لا تعجز عن تكوين المستحيلات ·

واجتمعت مرة بستى مع بناتها وحفيداتها في بيت قريب لها فاقترحوا على عمل الفال ··

وكان لعلم الفأل عند ربات بيوتنا كتيب يسمونه (قرعة الانبياء) يحتوى على تراجم في نبذ قصيرة لكل نبى نبذة خاصة يترجم حياته ، وما لاقى بين قومه ، وقد صدر الكتاب بفهرست يحوى أسماء الأنبياء ، ورقم الصفحة التى تجد فيها ترجمة كل نبى ·· وكان على طالب الفأل أن يقرأ الفاتحة ثم يغمض عينيه ويضع اصبعه على أول اسم يصادفه في صفحة الفهرست ، ثم يبحث عن ذلك الاسم فيقرأ الترجمة وياخذ فأله منها ·

فلما جىء الىّ في تلك الليلة بذلك الكتيب بدأت أقرأ لكل سيدة منهن فألها على ضوء الاسم الذى تضع عليه اصبعها ، وكان صاحب البيت يجلس في تلك الآونة على كثب منا ، في نفس الغرفة التى نجلس فيها ، منهمكا في أعمال خاصة به فكنت أراه كلما التفت الينا استهجن ما نعمل ، وازدرى قلة اتقانى القراءة فعن لى أن أنتقم منه بطريقة صبيانية ، فقدمت الكتاب الى زوجه فلما وضعت اصبعها على الاسم الذى وضعت عليها كشفت الصفحة المختارة كما يكشف علماء الرمل ، وشرعت أقرأ الصفحة · « فلما لم أجد ما يسيئها ، أو يسىء الى زوجها الحاضر ، بدأت الفق نعوتا لزوجها واوصافا لا وجود لها في الكتاب ·

فقلت (ان لزوجها لحية مثل التيس ، وقرونا مثل قرون البقر ، وصوتا مثل صوت الحمار) وأشياء كثيرة لا أدرى كيف لفقتها •

وكان الشيخ يسمع كل هذا دون أن يعيرنا لفتة ، ولكنه عندما رآنى أتمادى دون حياء ، ورأى النساء ينصتن لى ، ولا يخالجهن ريب في صحة ما أقرأ اقبل على في هدوء ووقف حيث تبدو الصفحة التى أقرأها أمامه ، وقال : (أرنى الكلام الذى تقرأه) فسقط الكتاب من يدى ، وتولانى من الذعر والخوف ما الجم لسانى •

وعندئذ جاء دور ستى •• وبدأت أعصابها تسيطر على الموقف • قال لها (ان هذا الولد من فين جاب هذا الكلام اللى يقوله ؟ •• خذى هذا الكتاب وقولى له يورينى كلمة واحدة من الكلام اللى بيقراه • هذا ولد قليل أدب وانتم ناس زى الحمير ما تفهموا شىء !• فين الكلام اللى بيقراه)

فصرخت ستى في وجهه ـ وكانت لها دالة على جميع أقربائها ـ صرخت في وجهه : كل هذا صحيح لكن ، الكلام ما يقعد في الكتاب • أصله كلام الفال يطير في الهواء ويجى غيره •• نعم هو فال والا •• شى تانى) •

وهكذا كانت ستى مقتنعة ، لأنها ورثت ما تعتقد بأعصابها ، دون أن يكون لعقلها دخل فيما تناقش •

وقد أفادتنى أعصابها ؛ لأن بناتها وحفيداتها بما فيهن زوج الشيخ لم تجرؤ واحدة منهن على معارضتها •

اما الشيخ نفسه فقد جر أقدامه الى حيث كان يجلس •• ويبدو أنه رأى نفسه أكبر من ان يجادل حميرا آدميين ، ويضيع وقته في ترهات صبيانية •• لا تستحق الجدل ••

عفا الله عنك ياستى في دار الخلود ؛ فقد كانت سذاجتك أسوأ معلم ربانا على التخريف، ودس في بواطن أعماقنا مالا نزال الى اليوم رهن اساره رغم ما نحاول من علاج •

عفاالله عنك فان في ذكراك أبلغ مثل للتدليل على حاجتنا الى تعليم نسائنا ما يفرضه الدين ، واعدادهن ، اعدادا مستقيما يساعدهن على تربية أولادهن ، وانشائهن انشاء قديما ٠



١٢
طيش

وعندما تخطيت الحلم ، وأوشكت فتوتي أن تستوي ، بدأت أشعر في صلف أنني شبيه رجل وأن من حقي أن أوجه حياتي في السبيل الذي أختار.. فأذعنت أمي مشفقة .. أما ستي فقد كانت ترى غير رأي أمي (ما بوشي .. خليه لا يروح المدرسة على كيفه .. هو ما هو ناقصه شيء .. عمال يقرا ـ الله يحفظه ـ في أحسن كتاب زي البلبل ياريتكم سمعتوه وهو يقرا لي حكاية سيدنا علي وحرابته مع الجن اللي نزل وراهم إلى سابع أرض وخلاهم يسلموا .. قراية الله يفتح عليك باأحمد ياولد جواهر .. هو إيش مقصودكم يعني ؟.. هو لازم ينزل بدال المنصوري يسوى عالم في الحرم يكفي ياجماعة .. خلوه يروح على كيفه .. يشوف له صنعه ياكلكم منها) وبذلك صدر القرار حائزا موافقة ستي !! بتسريحي الى السوق ، وإطلاق حريتي في اصطناع ما أرى . على أن أكفي البيت مؤونته ، وأسد عوزه وحاجته .

وما كان لستي أن تعلم أن عوزي إلى الانطلاق ، واشباع رغبتي في (برحة المروة) التي عشت محكوما بالحرمان منها ، وترك حبلي على غاربي بين (العيال المطاليق) هو أقصى ما يملأ مخيلتي وأن تذرعي باصطناع ما سأحترف لسد حاجة بيتي ليس إلا وسيلة تعينني على الانطلاق ، وتبيحني من الفرص أكبر قدر تبيحه (للعيال المفلوتين !!)

صدر قرار ستي بتسريحي ، ثم أشفع بتوصيات حاسمة (قومي اعطي له واحد جنيه من العلبة ، وسيبيه يعرف شغله .. ياطلع رجال ، عرف كيف يجب القرش زي أولاد خالته ، ياطلع ندل ، وفضل مضحكة للناس !!)

وقامت أمي إلى علبتها الصغيرة ، خاضعة في غير اقتناع ثم سلمتني الجنيه وهي تهيب بي :

ـ لكن ما تقول ايش الصنعة اللي بدك تسويها

ـ بس أنت مالك شغل ٠٠ قولي لها ياستي ٠٠ هيا تعرف حاجة في الدنيا !! قولي لها اسكتي مالك شغل !!٠

ولم تنطق ستي بحرف لأنها كانت بدأت وظيفتها في السبحة (يالطيف ، يالطيف ، يالطيف) ويدها تشير إلى أمي في إلزام وتصميم أن تعطيني الجنيه ثم ترفع سبابتها اليمنى الى السماء وكأنها تقول : (عليك يارب)٠

وأعتقد أن الله لم يخيب رجاء ستي فيما توجهت ، ولكنه لم يستجب لضراعتها إلا بعد حين طويل ٠ تسلمت (الجنيه) وأنا أعدو في خفة المجانين الى الدرج ، وما بلغت باب الشارع حتى وقفت أعيد النظر في ما كان ، وأدققه فيما يكون ٠

كان أول (جنيه) تسلمته يدي ، وقبض عليه كفي فما أروعه وما أبدع لونه الصافي ، ولمعته البراقة ، وجماله الناطق !!

ما أدهش قوته الحافلة ، وثروته الحاشدة ، وقيمته الغالية !٠٠٠ إنك ملكي ايها (الجنيه !) وانني سأمتطيك إلى ما أشتهي ٠٠ فما رأيك ؟ وبادرتني فكرة ٠ هل سأترك الجنيه في كفي معرضا للضياع ؟ أم أضعه بين طيات حزامي فلا آمن عليه من الجري والعدو ؟؟ أم أضمنه الجيب في ثوبي فلا يبعد أن يسقط ، أم أربط عليه في طرف (إحرامي) فأنساه لو نسيت (الاحرام) في غمرة اللعب ؟؟

ما يمنعني أن (أصرفه مجيديات) أضع في حزامي بعضها ، وأدفن البعض الآخر في زاوية من دهليز بيتنا ؟

استصوبت الفكرة فأخذ سمتى إلى الصيرفي ، ولكن الصيرفي ما كاد ينقده حتى تبين فيه بعض الزيف فرمى به أمام وجهي دون أن يشفق على فجيعتي في لونه الصافي ، ولمعته البراقة ، وجماله الناطق !!

وعندما انتقلت الى صيرفي آخر وآخر ، اقتنعت بأنه لابد لي من بيعه بما يساوي حالته الراهنة فقبضت خمسة مجيديات بدلا من سبعة ، وعدت إلى

دهليز البيت فدفنت البعض ، وضمنت البعض الآخر حزامي ٠ بعد أن اشتريت كيسا ينتهي بكتلتين أودعته نقود الحزام ،.وتركت الكتلتين تتدليان من طرفي الحزام في رشاقة أحسن (يعسوب) من حارتنا ٠

وراعني كف دفىء يضرب على كتفي (حيا الله أبوحماد !! هيا يدك على مجيدى ٠٠ شوف العيال عندهم سليق في الشهدا يدك على نص مجيدى لأجرة الحمار ٠ والنص الثاني للباى ها ٠٠ معانا ؟)

ـ أيوه معاكم ٠٠ واللي ينزل من السماء تستلقاه الأرض ٠

نعم سأكون معهم ٠ ولكن ما الحيلة الليلة في أمي وستي وقد أمستا تنتظران مكسب الجنيه وأن يعرفا نوع المهنة التي اعتزمت احترافها !٠

دفعت (المجيدى) الى صاحبي ، ووعدت أن أوافيه حيث يجتمعون ، ثم انقلبت الى أمي :

(شوفي ياأمي ٠٠ هذا ريال مكسب اليوم ٠٠ ها ٠٠ ياستي اشتريت حوائج من الحراج ، وبعتها في ساعتها كسبت ريال واحد ٠٠ ايش تقولي ٠٠ ها ٠٠ شاطر ؟؟)

ـ شاطر والله ياولدي ٠٠ روح الله يكسبك !!

ـ كمان اسمعي ٠٠ الليلة ١٤ في الشهر ٠٠

وفي الحراج جماعة عزموني ، عندهم حفلة في الشهدا ايش تشوفي ٠٠ أنا والله خايف يزعلوا ان كان مارحت ٠٠ كمان أروح أبات الليلة هناك أخاف تزعلي أنت ٠٠ والا تزعل أمي ٠

ـ والله ياولدي إن كان ناس طيبين روح ٠ بس خليك رجال عند نفسك ٠٠ ما ينفعك إلا رجالتك وأمك ما تقول شي مادام العزيمة حفلة ٠٠ شى لله ياأهل الله وتلتفت الى امي في عزيمة صارمة : أعطي له فراشه ، خلي الواد يماشي الناس ٠٠ ويعرف كيف يسوى رجال ٠٠ أعطى له الفراش ٠

وتعطيني أمي بعض الفراش الذي سأتوسده في ليلتي ، وهي تنظر الى مرة ،

والى ستي أخرى .. نظرة الحائر ، الذي لايدري الخير فيما يقدم ، أو فيما يؤخر .

وتقلنا الحمير كما تقل الصافنات الجيادفرسانها ولم يكن لي قبل اليوم عهد بركوب الحمير ، فقد عشت مع والدي لا أعرف غير المدرسة بعد الكتاب والمسجد بعد خالتي حسينة ، ولكنني أبيت الا أن أثبت فوق صهوة الحمار ، وأعلن من فتوتي ما يؤهلني لمخالطة هذا الصنف القاسي من الناس وقد اختل توازني فوق صهوة الحمار أكثر من مرة . فكنت أتشبث ببرذعته في إصرار العنيد .. وألقاني مرة على الأرض فاستشاط غيظي . وانقلبت ألهب الحمار بخيزرانتي ، كما يفعل (المشاكلة) إذا عثرت بهم رجل الحمار !!

وانتهيت الى وادي الشهداء (الزاهر) فكانت ساحته المتسعة باتساع ما يمتد إليه النظر غاصة بجموع لا يحصيها العدد ..

كانت كل مجموعة تستقل جهة في الوادي على ضوء مصباح ، أو مصابيح خاصة بها ، وتترك نارها تشتعل تحت قدور طعامها . بينما ينتشر بعض أفرادها في امتداد الوادي يلعبون (الكبت) أو يتسابقون في العدو والقفز ويجلس المتعقلون إلى ضوء المصابيح يلعبون الشطرنج أو يتنقلون بين مجالس الغناء في محفل حسن جاوي تحت بيت الفنتيانة أو محفل صالح الحلواني بالقرب من مقعد بيت العراقي .

كانت ليلة أبحتها جميع مشاعري ، فلم أترك لعبة عنيفة إلا شاركت فيها ، أومسابقة خشنة إلا كنت المجلى فيها . حتى جاء العنف ، وجاءت الخشونة على أثوابي فمزقتها وتركتني أضحوكة بين رواد الوادي وسماره .

ولكني أحكمت الصلة بأكثر (العيال في بشكتي) وتعرفت بعدد غير قليل من أفراد المجموعة التي كانت تحتشد بها الأماكن القريبة منا في الوادي .

ورأت أمي ثيابي الممزقة ، من أثر الكبت فأرادت أن تبرهن بها على ما تعتقد من شقاوتي،والكبت لعبة ينقسم اللاعبون فيها الى فريقين في أحد الميادين يفصل بينهما خط مستقيم وينتدب الفريق أحد لاعبيه ليقتحم القسم الآخر وراء

الخط ويناجز من فيه فإذا استطاع أن يضرب أحدهم ولو لمسا ثم يتخطى الخط القاسم دون أن يقبض عليه اعتبر الشخص المضروب ميتا وغادر اللعب أما اذا استطاعوا القبض على المقتحم قبل أن يتخطى الخط عائدا فإنه سيكون هو الميت في عرفهم وبذلك ينقص عدد اللاعبين واحدا ·

وعلى هذه الوتيرة يستمر النقص في الفريقين حتى إذا فقد أحد الفريقين أنفاره عن آخرهم اعتبر الفريق مغلوباً ·

وفي استطاعتهم أن يستأنفوا اللعب من جديد وهي لعبة تمثل الفروسية في أعلى مظاهرها إذا استطاع المختصون تهذيبها وتشذيب ما يشوب فصولها من عنف · استطعت أن أقنع ستي بأن أثوابي كان قد أنهكها القدم ، وجعلها قابلة للتمزيق ·

وزاد اتصالي بعدها بكثير من (العيال المطاليق) في حارتنا ، وفي بعض الحارات الاخرى التي تحالف حارتنا ، واستطعت أن أتسلط بمهارة على جزء طيب من علبة (الجنيهات) التي كانت تحتفظ بها أمي · لاني كنت أدعي أن اعمالي في الحراج قابلة للتوسعة وأن بعض العيال يشاركونني بأموالهم وجهودهم ·

ولم تكن هناك أعمال في الحراج ، بل لم يكن ثمت (عيال) إلا المطاليق الذين لا يشغلهم الا أخبار الحارات المجاورة ، وقصص (المشاكلة (في ضرب العصا ·

وكنت اسخو لأمي ببعض الريالات في بعض الأيام ، بدعوى أنها أرباح تدرها أعمال الحراج ·· كنت آخذ الجنيهات بيميني وأقدم بعض الريالات بشمالي ·· بدعوى أنها ربح تبيح لي التوسع في بعض (الجنيهات)

ولم أدم على ذلك طويلا ، فقد كان موجود العلبة محدودا ، وكانت أمي تكرر أمامي حساب الموجود كلما نقدتني جنيها واحدا ، وتضع يدي على مبلغ الخطر الذي يدنو منا كلما قل عدد الجنيهات في العلبة : ولكني كنت مشغولا عن حسابها (بشقاوتي) وما غمرتني به (بشكتي) من الطيش ، كنا نقضي نهارنا في مداخل برحة الفل بجوار المسعى نهزج باغانينا : ١بالعشرة من قال لك

تجاكر ٠٠ ياالعشرة قل للحجر يمشي) والعشرة فيما علمت أحد (المطاليق) وهو يوازي عشرة (مشاكله) وكان من غير حلفائنا في الحارة وقد أغرته (شطارته) فحرك إحدى الحجارة على حدودنا في الحارة فأعطيناه الدرس القاسي وجعلناه أغنيتنا : (ياالعشرة من قال لك تجاكر ياالعشرة خل الحجر يمشي)٠

وكنا نقضي أمسياتنا في ظل من برحة المروة تحت دكان أحد (بشكتنا) من أولاد المزينين ، نسأل عن موكب الزواج في بيت الفلمبان هل سيتخطى حدود حارتنا ؟ـ (أبدا ٠ شوف ياواد طاهر أنت وبطنجها ، والواد أبو راسين ٠٠ وخذوا معاكم أبوسنكيت ، والاشرم وولد الدحدح ، واستنونا عند راس الحدود ٠٠ خليكم مدسوسين ورا الطاحونة اللي هناك ، وأنا وسحلول ، والمطبقاني وأبوعروج ٠٠ نمسك راس الخرابه اللي جنب الطاحونة ٠٠ من يوم ما نشوف السرجة حقت الجواز مقبلة نصفر لكم ٠٠ ان كانت وصلت الحدود وطلعت على فوق وما دخلت على حدودنا كفى الله المؤمنين ٠٠ وان كان لا والله حطوا رجلهم عندنا ٠٠ دغرى يدنا والحجارة اللي في الخرابة على الفوانيس ، والشمعدانات والاويزات وخليناها دشمان ٠ لا يسير الدشمان حتى تكونوا أنتوا في وسط الميدان طيحوا بالعصي زي ما يكون ٠٠ في روسهم ، في أكتافهم في عيونهم ٠٠ المقصود واحد منهم لا يدخل الحدود ٠٠ ها ٠ ايش قلت ياواد دحدح : وانت ياأشرم ٠٠ تمام »٠

خلاص تمام ٠٠ عيالك عيال !! ويكون (الدشمان) ويكون ضرب العصا في سبيل الحدود كأننا في خط ما جينو بين الفرنسيين والألمان[1]٠

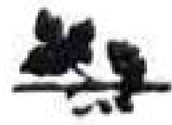
وكنا في دكان المزين لا نترك ضعيفا يسلم من أذانا ، كنا نغطي احدنا بما يشبه الملاءة ونجعله في باطنها كالصرة ، ثم نطلب من بعض الحمالين أن ينقل هذا

(١) وقد علمت فيما بعد أن مثل هذه الترهات الصبيانية لم تكن قاصرة علينا وحدنا فقد كانت في معظم عواصم الشرق العربي قبل أن تتحضر و يتشر التعليم ٠

الحمل في (الزنبيل) بأجرة نفاوضه فيها فإذا وضعنا صاحبنا المصرور في (الزنبيل) ونقلناه على رأسه بدأت الصرة تتحرك وبدأ العفريت يقفز في براعة من الزنبيل على الأرض فيجري المسكين في هلع ، تاركا (زنبيله) ونبقى في أماكننا مسرورين بابداعنا ·

وكنا ندعو حاملا آخر فيأخذه أحدنا الى أول بيت يصادفه حتى إذا دخل به الدهليز انفتل عائدا في خفة وأقفل باب البيت على الحامل الذي تركه يصرخ ليزعج السكان ، والجيران حتي يطلقوه من حبسه فاذا انطلق خرج مغيظا يستبد به الحنق · بينما نشرف عليه نحن من حيث لا يرانا ؛ لنضحك من حركاته ملء صدورنا ·

وكنت شخصيا من أكثر العيال (شقاوة) وأميزهم وقاحة ، وكانت لي عصاة مدهونة بذوب الشحم معدة للايام السود · وكنت كثير العبث بها لا أترك دكانة إلا (أخبطها) أو كلبا إلا أضربه أو حمارا إلا الهبه ، أو جملا إلا أوكزه ·· فكنت لذلك أشتبك مع الجمال أو الحمار أو صاحب الدكان في عقلة حامية · وكنت لا أظفر فيها إلا في القليل النادر !!



(١٣)

حظ معاكس

وأعلنتني أمي في ذات أمسية أن (الجنيهات) في العلبة أوشكت على النفاد ، وأن الجنيه الذي ستنقدني اياه اليوم سيكون آخر جنيه يمكنها أن تقدمه اليّ ٠

كان صوتها هادئا رزينا ، وكانت كلماتها تؤدي معاني الصرامة والجد أكثر مما تؤديه من معان أخرى ، فشعرت أن نبرات صوتها تلمس وترا خفيا في أعماقي ، وأن مشاعري بدأت تستيقظ على هول المفاجأة ، وتحس بأحاسيس أمي ٠

وتناهى إلى سمعي صوت (ستى) من مصلاها في غرفة أخرى وهي تبتهل في انكسار وخشوع (الهي يهديك ياأحمد ياولد جواهر ، ولا يشمت فينا عدو) فكان لابتهالها أثر السحر في إحساسي المتبلد ، شعرت على أثره أنني أصحو من غفوة ، وأن ضميري يهمس في سرى ٠٠ ماذا بعد هذا الجنيه ياأحمد ؟؟ وهل في استطاعتك أن تشمخ بأنفك بين رفاقك اذا اعوزك النقد ، وأصبحت خالي الكيس ؟؟ وهل بين الرفاق من يتطوع بنجدتك اذا ألمّت بك الحاجة ، أو يرفع من هامتك اذا أذلك الفقر ؟؟»

أفكار ساورتني وأيقظت مواطن الاحساس من نفسي ٠٠ رأيتني بعدها أقرر شيئا ، وأنشط لتنفيذ ما قررت ٠

بكرت في صبيحة اليوم التالي الى سوق الجملة للخضار والفاكهة (الحلقة) على أمل أن أضع الجنيه في بضائع بالجملة أستطيع توزيعها فيما بعد مفرقة فلم أجد زبونا لما اشتريت الا بأقل مما دفعت ، فلم أيأس ، وعاودت الكرة يوما بعد يوم فلم يكن حظي بأوفر منه في اليوم الأول ٠

واستأنفت نشاطي في مجال آخر فشعرت أن (الجنيه) رأسمالي الوحيد يأبى الا أن يفشل في التجربة الثانية كما فشل في التجربة الأولى ٠

وقيل لي انك لو حاولت تجربة نفسك في مجال ثالث لكان أضمن لرأسمالك الصغير فجربته فأبى الحظ أن يواتيني في شأنه ، ولاحظت أن الزبائن تزدحم على غيري بجواري دون أن تشعر بوجودي إلا في اللحظات القليلة التي تنفد فيها بضاعة هذا الغير .

واني لاذكر الساعة تلك الأيام التي آلمتنى فيها الصدف السيئة ، وأذاقتني من عذابها ألوانا ، وأسائل نفسي أكان ذلك هو الحظ العاثر بمعناه الشائع بين الناس ؟ أم أن في الأمر مصادفة لا يربطها بخرافة الحظ رابط ؟

ويسلمني هذا التفكير الى البحث فيما قيل عن الحظ فأسائل نفسي : أهناك شيء يقال له حظ ؟؟ أم هي تعلات تخيلها الفاشلون كتسلية يسرون بها عن أنفسهم المثقلة بهموم الحياة .

الواقع أن (ستى) كأستاذة لها قيمتها في تربيتي الأولى كانت لا ترهق تفكيرها بمثل هذه الشكوك والمحاولات .. فقد كان الحظ في نظرها حقيقة لا محل للجدل فيها ، وكانت تستدل على وجوده بآلاف الأمثال الناطقة في حياة من يحيط بها من المحظوظين والبؤساء .

وكان لا يكفيها أن تضيفه إلى بند المعنويات في الحياة ، بل تجرؤ على اعتباره كائنا حيا ، أو ما يشبه الحي . لأنه كان يصادفها في الكثير من أحلامها فتتعرف عليه وتفهم من أوضاعه في أيامها كل ما تريد أن تفهمه ، وكانت تقول : انه يبدو لبعض الرائين في أحلامهم في صورة عبد ، وفي ذلك ما يدل على اضطلاعه بخدماتهم كما يبدو أحيانا في صورة سيد مطاع .. وفي ذلك ما يدل على شقائهم بخدماتهم له .

كل هذه الخرافات كانت في نظر (ستى) حقائق من العبث أن تجادل فيها . فكنا لا نملك أمامها إلا التسليم بما في التسليم من نعومة بال وطمأنينة .

أما اليوم وقد فقدنا التسليم ، واتسعت آفاقنا باتساع مداركنا .. فاننا نعاني من اضطراب البحث ، ودقة أسراره ما حرمنا الطمأنينة ، ونعمة التسليم .

نحن اليوم أمام مغيبات في الكون وأحاج لا ينتظمها قانون • فهل نحيل فكرة (الحظ) الى واحد من أنواعها ؟ أم نتريث ، ونأبى إلا أن نسميه خرافة فيتسع الخرق ؛ ويتعين أن نسمي كل ما يخرج على نظام الكون خرافة ؟

قد يصادفني انسان ثقيل الظل فأعجز عن تتبع أسباب الثقل فيه ، وقد يغريني التتبع بدراسة أخلاقه ؛ لعلي أجد فيها عيبا يبرر ثقل الظل الذي أشعر به فأجد أن عيوبه قد لا تزيد عن عيوب زيد من الناس وقد يكون هذا الزيد خفيف الظل جميل الروح رغم ما في أخلاقه من عيوب فمن أين كان الثقل في الظل ؟ وكيف جاءت الخفة في الروح ؟••• لعلها أسرار روحية دقيقة تتعذر دراستها كما تتعذر دراسة حقيقة الحظ ؟ فهل اسلم بهذا ام انكره ؟ أم أواصل بحثي فيما يعجز عنه البحث ؟؟

رحم الله ستي فقد كانت عقليتها المحدودة أدعى الى الطمأنينة ونعومة البال !!

ولازمني سوء الحظ ، أو صدفه السيئة كلما احترفت مهنة ، أو حاولت عملا حتى اقترح أحد أقربائي أن أهيىء لنفسي دكانة صغيرة اقرضني بعض المال ونصحني أن أجمعه الى ما بقى عندي من أنقاض الجنيه السابق •• فأنظم به بقالة محدودة عساني أستطيع النجاح النسبي في ما يكون •

وبدت الفكرة وجيهة في نظري بعد أن يئست من محاولاتي السابقة ، وبعد أن سئمت من مجاراة رفاقي •• الذين كنت أتعشق (شقاوتهم) وضلال حياتهم •

بدت الفكرة وجيهة في نظري ، لأني أملت أن أستقر في مقعد مقيم ، وأن أربط حياتي بمستقبل الدكان ، وألهو بأعماله عن جميع ألوان العبث والطيش ؛ التي كانت تربطني برفقة السوء ، في الحارة •

هيأت الدكان ، وزودته بما أملك من إمكانيات ، ورحت أدعو الله في سري أن يجعله نقطة فاصلة في حياتي ، ولكن الله جلت عظمته كان قد أراد لشأني

غير ما أريد ، وهيأني لغير ما أعددت فلم تبدر علامة لنجح الدكان ، ولم أجد من إقبال الزبون ما يغريني بالثبات ، أو يحملني على الاستمرار •

وكنت لا أميل الى إفشاء أسراري ، ولا يعجبني شيء ما يعجبني أن أجالد . وأن أتجمل أمام من يهمه أمري من عدو أو صديق •• فكنت أبدو أمام رفاقي القدامى تويجرا لا يعاكسه النجاح ، وأبدو أمام ستى ، وأمي رجلا يخطو في مدارج الظفر ، أما قريبي الذي وجهني الى ما كان فكان لا يعرف من حقائقي إلا ما يستحق التقدير والاكبار •

وكنت أقاسي في غمرة المجالدة والتجمل على هذا النحو ما لا يقوى على احتماله انسان •

وكانت مكة تحتفل بعيد (المحمل) المصري والشامي فكان يحلو لي العبث بحراس المحمل ومشاكسة الحجاج الذين يتبركون به وكنت اقص طرفا من أعمال على ستى فتزجرني لأن المحمل عندها مركب السيدة فاطمة الزهراء فلا ينفعني الزجر •

كان المحمل كناية عن هودج تعلوه قبة عالية في شكل هرمي وكانت حكومة مصر ترسله سنويا كرمز لقافلة الحج المصري فيدخل مكة على ظهر جمل خاص به تتدلى عليه الستائر المزركشة وتعزف امامه فرقة من الموسيقى العسكرية واخرى من أصحاب الزمر البلدي فتحتفي مكة باستقباله احتفالا بهيجا حتى إذا انتهى الى باب المسجد طيف به عدة مرات في المسعى مما يلي باب على ثم انيخ الجمل ونقل المحمل الى زاوية من زوايا المسجد ليبقى تحت رعاية حراسه الى أن يحين موعد سفر الحجاج وكان أكثر الحجاج يتبركون به كأي شيء مزركش تعلموا الانتفاع من بركاته الموهومة •

وكان يحلو لي وبعض العيال من أمثالي أن نقلد المحمل فنعمد الى بعض العصى نربطها من أحد طرفيها حتى تستقيم في شكل هرمي ثم نكسوه شالا مزركشا نستعيره من أحد بيوتنا ثم نحمله حتى نضعه على كثب من المحمل في

المسجد ونحاول الحجاج ليتبركوا به لأنه محمل ابن فاطمة الزهراء الصغير •

فيصرخ بنا حارس المحمل ويستعدي علينا بعض خدم المسجد فيطردونا ولكننا لا نلبث أن نعاود الكرة فنعيد المحمل الى مكانه ونستأنف دعوة الحجاج ليتبركوا بمحمل ابن فاطمة الزهراء فيصدقنا بعض السذج ويضحك منا البعض الآخر ويزجرنا الأكثرون يساعدهم حارس المحمل ونظل على هذا حتي يتنبه خدم الحرم فيجلونا بقوة العصا •

كنت أحس شيئا حادا في كياني يثير أعصابي ، ويدفعني الى العمل •• عمل أي شيء فيه عبث أو (شقاوة)! وأنا اليوم لا يعجزني تفسير ما كنت أحسه •• فقد ربيت على الكبت فلما زال سلطان والدي ؛ انفجرت بأقصى ما تنفجر به المواد • ولو عقل أبي ـ رحمه الله ـ عواقب الكبت لتركني أنفس عن شعوري في مجال اللعب بين الصبيان !! ولكن الحزم في معانيه الخاصة عند أبي كان يحرمني حقوقي في المرح ، ويهيئني بعد الحرمان الطويل للانفجار !! فليت الآباء في كل زمان يقدرون أمثال هذه العواقب ـ اذن لاستغنت بلادنا عن عدد كبير من أشقيائنا ومجرمينا !



١٤
أدب وعلم

وتعشقت القراءة في هذه المدة من حياتي ، ووجدت فيها ملاذا من همومي وأشجاني ٠ ولكنني لم أعثر على ما أقرأ ، واذا عثرت في القليل على شيء فاني لاأجد من يوجهني الى ما يحسن قراءته أو تركه، صادفتني في هذه الفترة قصص لحسن البصري وأخرى لدليلة المحتالة ، وغيرها عن تودد الجارية ٠٠ التي حذقت علوم الأولين ، وذكاء الآخرين ٠ كما صادفتني قصة للشاطر حسن الذي ساقته معشوقته من الجان الى جزائر واق الواق ، وفيها رأى وراء المعمور ٠ دنيا جديدة تثمر بعض أشجارها رؤوسا كأنها رؤوس الآدميين تنطق ألسنتها في أصوات عالية (واق الواق ٠٠٠٠ سجان الملك الخلاق)

وكان لهذه القصص فضل استغراقي في أجوائها الواسعة وخيالها المجنح ٠ الذي كان يحملني بعيدا عن اشجاني كما كان لها الفضل في تنشيط ذهنيتي ، وحملها على الانطلاق في آفاق لا نهاية لحدودها ، ولا ضابط لمقاييسها ٠

ثم صادفتني قصص متسلسلة للملك ذي يزن ، والظاهر بيبرس و(فتوح الشام)٠ كما صادفتني علوم كونية خاطئة في (بدائع الزهور ؛ وعجائب الدنيا ، وغرائب البحار)، فنهلت من مياهها الآسنة ! ما ينهله البدوي وقد ألح عليه العطش ، وغصت في أخطائها الى أعمق ما تصل إليه الأغوار البعيدة ، وهيأت لنفسي منها معارف لا يدري إلا الله مقدار خديعتي بها ثم ما لبثت أن شرعت أصنف هذه المعارف وأبوبها بقلمي في دفاتر لا تزيد عن حجم الكف ثم أسميها بأسماء مسجعة (نوادر الأخبار في صحيح الآثار) (علوم الأولين وتاريخ السابقين)٠

كنت اذا وجدت بحثا في طبقات الأرض وأسمائها ، وأنواع سكانها من الجن ؛ أو البن أو قرأت عن مسارب النيل من قباب قيل انها على كثب من حدود

الجنة !! أعجبتني هذه الترهات وراقتني طرافتها ، وشجعتني على نقلها بالحرف الواحد في كتابي (نوادر الأخبار أو علوم الأولين) ثم لا أخجل اذ انتهيت من تحبير آخر صفحة فيه أن أكتب اسمي في مكان بارز من غلافه وأضيف في بعض الأحيان إلى الاسم بعض النعوت اللازمة ٠٠ كالعالم الفهامة أو الأستاذ الجليل ٠

وطال إدماني لهذه الكتب وكنت أعيد قراءة بعضها أكثر من خمس مرات إعجابا بحوادثها ، أو سرورا بسهولة أسلوبها الذي لا يرتفع كثيرا عن أسلوب التخاطب بين عامة الناس ، أو مكرها لقلة ما أملك من الكتب ٠



١٥

نقطة تحول

ودام عملي في الدكان الى شهور كنت أشعر أثناءها أنني في حاجة الى تجديد رأس المال كلما تقدمت الأيام بي ، وكنت قد اطلعت في بعض ما أقرأ على نبذة طريفة يصف أحد الأدباء فيها جارا له يحاول التجارة عبثا فقال : (انه لو تاجر في الزيت لمحا الله آية الليل)

وليس مجهولا أنهم كانوا يستضيئون بالزيت فلم يستبعد الأديب الظريف أن يمحو الله آية الليل لو تاجر جاره الفاشل في زيت الاستصباح ؛ ولا أنكر أنني كنت لا أتذكر هذه الطرفة حتي ينتابني الخوف من أن تأمر الحكومة بمنع تعاطي الشاي إكراما لحظي العاثر في ما أتاجر ولكن الحكومة كانت أعدل من أن تعلن مثل هذه الأوامر ؛ ومع ذلك فقد أبى حظي إلا أن يعاكسني في اصرار ، وأبت الصدف إلا أن تشاكسني إذا كان موضوع الحظ لا يزيد عن خرافة لا ظل للحقيقة فيها ٠

وأشرق دكاني في أحد الأيام باشراقة زميل قديم رأى أن يزورني بعد تباعد طويل ؛ وكان في زيارته ما يصح أن أسميه بنقطة التحول ٠ فقد رأى وفاؤه أن ينقذني من حياة التبلبل التي أعيشها الى حياة أخرى لا أقول انها كانت سعيدة ولكني أقول انها كانت خالصة من شوائب القلق رغم ما فيها من إقلال ٠

قال زميلي : ألست من حفاظ القرآن فيما أذكر ؟ قلت : وانني من مجوديه ، ودارسي احوال الغنة وأحكام المد فيه ٠

قال : وما رأيك اذا أضفناك الى المدرسة التي تدرس فيها ، كمعلم للقرآن ؟

فأطرقت رأسي في هيئة المفكر الذي لا يريد أن يجازف بترك تجارته الرابحة الى الوظيفة قبل أن يقلب وجوه الرأي ، ويزن الملابسات بأدق ما عرفت به موازين الرأي ، ثم اعتدلت وشرعت أطيل النظر اليه في تخابث ، وأنا أكاد لفرط

سروري أن أنهال على راحته لثما وتقبيلا ثم قلت :

ولكن ألا ترى أن من الغبن أن أطلق حريتي في تجارتي الى قيود الوظيفة !! فمازال يقنعني بفساد ما وهمته من قيودها وهو يحسب انه سيحبب الى ترك الدكان وما علم أنني لو حلمت بمن يعرض عليّ التوظف لغالطت نفسي وانطلقت على أثر يقظتي من الحلم باحثا عن شخصية من عرض عليّ التوظف لأرجوه قبولي فيا حلمت به في منامي ـ ولكنه التخابث ، والمجالدة في ضبط العواطف والتجمل بالمراءاة الزائفة ٠

وقبلتني المدرسة كعضو في هيئتها التعليمية ، فبدأت اشعر بالفرق بين حياتي في الحارة والدكان ، وبينها في وسط المعلمين الراقي ، وبدأت أعاشر صنفا من الناس له قيمته الأدبية وله حظه من التهذيب اذا قيس (بالعيال) من أشقياء الحارة ٠

ولست أدعي أن دخائل هذا الصنف تنطوي على أفضل مما تنطوي عليه دخائل (العيال) في الحارة ولكنها أخلاق شذبتها المعرفة ، ولطفت من سورتها أما في الحارة فقد ظلت على فطرتها قاسية بما في القسوة من رجولة ونضج وخطر ، وما في الفطرة من طوايا سليمة وشعور احمق ٠

على أن رفاقي من هذا الصنف المتعلم لم يكن تعليمه راقيا بالصورة المعروفة في الأوساط العالية ، ولم يكن نضجه التربوي قد شارف شيئا ساميا من الكمال ٠٠ فقد كنا ، أو اكثرنا خريجي كتاتيب عالية ، أو مدارس لم تتعد الطور الابتدائي أو المتوسط ؛ وكنا الى جانب ذلك فتيانا لم يطر شارب أكبرنا سنا ، جمعتنا مديرية المعارف من زوايا متفرقة لتزود مدارسها الجديدة بما تملك من محصول ٠٠ فكان على المدارس أن تعلمنا كيف نعلم أبناءها وأن تعرضنا للتجارب القاسية لتهيىء منا ، ومن تلامذتنا جيلا يلم ببعض المعرفة ، ويرود طريق النهضة العلمية الجديدة ٠

كنا نشتعل حماسا لمهامنا في المدرسة ، وكانت اليقظة الجديدة في البلاد قد خالطت مشاعرنا ، فأصبحنا نؤدي اعمالنا عن عقيدة وايمان ، وكنا الى جانب هذا

مسرورين بالسلطة التي كانت تخولها لنا أوضاع المجتمع في تلك الأيام ..
فالطفل في المدرسة خادم أستاذه المطيع ، يتلقى أوامره في خشوع ، ويمضي الى مرضاته بنفس الروح الرياضية التي كنا نمضي بها الى الكتاتيب من قبل !

كان كرسي الأستاذية في الفصل خشبيا ، ولكن التلاميذ يأبون إلا أن يجعلوه وثيرا فيفرشونه لي (بأحاريمهم) إحراما فوق الآخر حتى تزيد طبقات الأحاريم عن عشرة ، ثم يزينون ظهره (بأحاريم) أخرى ، حتى يبدو كأنه منصة عرس ، فكنت بذلك أرضى خيلائي كفتى لم يكتمل النضج .

وكنا نتمتع بصولتنا في الجلد !!، ونرضى غرورنا بانتقاء العصى المبرومة ، ونشبع رغبتنا في القسوة على من نجلدهم كما يشبع الطغاة نهمهم في الفتك بضعاف رعاياهم .

وكانت لذتنا باجتماع هيئتنا التعليمية - كشلة - لا تعادلها لذة . فقد كانت سنوات اعمارنا متقاربة ، وكان مستوى عقولنا المحدود لا تتفاوت درجاته كثيرا .

لم تكن لدينا دروس يتعين مراجعتها أو بحوث يجب اعدادها بل كانت تكفينا كتب التلاميذ المطبوعة لنكلفهم باستظهارها عن ظهر قلب ثم نفسر لهم ما أغلق من بعض معانيها .

كان الطالب يحفظ في كتابه نص السؤال وصيغة الجواب كما طبعتا وفي ذلك ما يضمن له النجاح عند استاذه كما يضمن له التفوق في غرفة الاختبار .

لهذا كان كل همنا بعد أن نؤدي وظائفنا في الفصول بحماس وغيرة - على طريقتنا - أن نتمتع بندواتنا واجتماعاتنا في مرح صارخ ، وعبث صاحب ، وأن نمضي ليالينا في سمر ضاحك وسويعات فراغنا في هزل يليق بأترابنا في سن الفتوة المبكرة ، وان كان لا يتفق مع ما يجب لو قارنا كمدرسين .

وكان زميلنا (عبدالله خوجه) المعروف اليوم على رأس الحركة التعليمية الليلية استاذا لا ينازع في فن الضحك ، وتدبير المقالب ، وتمثيل الفكاهات التي لا يجيدها الا الموهوبون .. فكانت أيامنا لذيذة بأفانينه الطريفة ونكاته الصاخبة .

كانت مواعيد دوامنا في المدرسة لاتحدها ساعات . فقد كنا نصرف تلاميذنا لنبدأ ندواتنا لا في هدوء يليق بوظائفنا ولكن في ضجة صاخبة وسباق في الجري والنط بين غرف المدرسة وادارتها . وكان يحلو لنا في بعض الأمسيات أن نمتطي صهوات بعض الحمير الفارهة في موكب حاشد ٠٠٠ يبدأ خروجه من المدرسة في ضجة لا تليق بمدرسين . ثم ينتهي في وادي الزاهر او (ربع الكحل)

وأكبر ظني أننا كنا معذورين ٠٠ فقد كان أكبرنا سنا لا يتجاوز سن الفتوة اللاعبة : وكان سرورنا بفرص اللعب بيننا واصدار الأوامر على الاطفال وجلدهم لا يقل عن سرورنا بمهامنا التعليمية في المدرسة ٠

وجاء يوم رأت مديرية المعارف وعلى رأسها فضيلة الشيخ عبدالله الزواوي وكيل المديرية ان تستغنى عن رئيسنا في الادارة وكان شيخا وقورا ارهقه نزقنا فاختارت أحدنا للادارة ٠

كان زميلنا الشيخ عبدالوهاب خياط لا يكبرنا الا بسنوات لا تكاد تذكر ولكن كان يمتاز بكثير من الهدوء الذي يرشحه لادارة فتيان مثلنا استمرأوا النزق وقد استطاع أن ينجح ولكن الى حد كان لا يكفي كل الكفاية لتأمين العمل في جو من الهدوء الذي كانت ترجوه مديرية المعارف ٠

كان يمتاز بوجه صارم لا يستخفه النزق الشائع بيننا وكان شاربه المفتول يرسم صورته امامنا كشاب ناضج يستحق التوقير ولكننا مع هذا لم نتنازل كثيرا عن مباذلنا المضحكة حتى في مجتمعاتنا الرسمية به ٠

ومما اذكره انني كنت شخصيا أحسد فيه هذا الشارب واتمنى لو كان لي بعض شعراته لابرمها كلما استدعى الحال أو أزمت أزمات الجد في مواجهة بعض التلاميذ المناكيد ٠

وكنت لا أخفي عليه حسدي حتى لاذكر أني جئته مرة لأقول « شيخ عبدالوهاب أما آليوم نبتت لي شعرة واحدة فأسرعت أبرمها كما تفعل ولكن ٠٠ قطعت وياللاسف !! فما ملك أن ضحك حتى استلقى ٠

وكان الشيخ عبدالوهاب الى جانب صرامته أنيسا يهوى فن الغناء ويجيد الطرب على العود وفي سبيل هذا كان ينسى صرامته في كثير من الأحيان ويتودد الينا ليجمعنا الى حفل أنيس في بيته يغنينا فيه أشهر (الطقاطيق) والأدوار المصرية التي كانت شائعة في عهدنا وتنتهي سهرتنا بمائدة حافلة كانت تكاليفها لا تصيب الفرد منا الا بنحو ثلاثة قروش ·

واني لأذكر مرة وكنا منسجمين في احدى ليالينا الساهرة في بيت الشيخ عبدالوهاب واذا طارق يطرق الباب علينا وكانت حفلات الغناء محظورة في مكة بأمر الملك الحسين فأسرعنا نخفي آلات الطرب حتى إذا مرت ساعة ولم يعاودنا الطرق استأنفنا الغناء فعاد الطرق بصورة اشد فعن لي أن أسرع الى أعلى البيت لاشرف على الطارق فما راعني الا رجل مربوع القامة لا يكاد يطرق الباب حتى ينزوي في ركن خلفه فكان هذا ايذانا لنا بالغاء ما نحن فيه واستئناف جلستنا في أحاديث عامة ·

ودلتنا القرائن فيما بعد على أن طارقنا الليلي كان شخص الحسين بن علي فقد شاهده نقيب الحارة ليلتها يرود بعض الأزقة بجوار البيت الذي نسهر فيه وهي أزقة ربما خفيت على عفاريت الأرض لأنها تتفرع من دروب ضيقة كل الضيق في اعالي جبل الهندي وربما ضاعت مسالكها على اي عابر لا يسكنها لكثرة ملتوياتها ·

وأكد لنا هوية طارقنا ليلتئذ أن مديرنا دعي في صباح اليوم الثاني من سهرتنا لمقابلة الحسين في قصره فلما مثل بين يديه قال له « لقد نمى الى ان بعضهم يحيى ليالي غناء في بيت بعض جيرتكم فهل لك ان تصدقني » فلم يحاول الشيخ ان يلف أو يدور بل قالها كلمة صادقة ـ « إنه بيتي ·· وأنا الذي احيى فيه بعض ليالي الغناء في نفر من أساتذة المدرسة بشكل بريء كل البراءة لا يشوبه حرام ولا يختلط به مشبوه ·

قنع الحسين بما قال وسرته نبرة الصدق وأخذ ينصحه ليقلع عن مثل هذا

اللـون : « ياابنـي زيكم أساتـذة ٠٠ لازم يسهـروا في طلـب العلــم ٠٠ في المذاكرة ٠٠ في شيء ينفع ٠٠ موفي زى هادا الهلس ٠٠ أقول في شيء ينفع ٠٠ موفي زى هادا الهلس »

وما كاد الشيخ عبدالوهاب يستأذن للخروج وينتهي الى الباب حتى عاد فاستدعاه ليقول :

(ياولدي انت باين راجل عاقل ٠٠ أحب أسلمك طلال ٠٠ ولـد ولـدي عبدالله ٠٠ حطه في المدرسة عندك خليه يختلط مع التلاميذ ٠٠ خليه يتعلـم معاهم ٠٠ خذ بالك منه ٠٠ لا يلعب ربيه ٠٠ لا تميزه عنهم ٠٠ اقول ربيه لا تميزه عنهم لا تخليه يتمهمل)٠

ووافانا في اليوم التالي طلال بن عبدالله (ملك الاردن السابق فيا بعد) فافرد له فصل خاص في المدرسة ضم اليه نفر من عقلاء الطلبة وشرع يواصل دراسته ولكن الحسين نمى اليه أن المدرسة تغضي عن بعض اخطائه فعن له ان يفاجيء المدرسة بزيارته فكان من سوء حظ طلال أن رآه يشاكس بعض زملائه فصرخ يستدعي المدير حتي اذا حضر أمر بربط رجليه وأن يجلده المدير عدة جلدات ثم يهيب بالمدير : تسمع من فين يامدير انا جبته هنا عشان تعرف مافي فرق بينه وبين غيره ٠٠ هنا كلهم سوا ٠٠ اقول كلهم سوا ٠

ومن طرائف الحسين التي تسجـل عن غرامـه بالتجسس على أصحـاب الأعمال الرسمية انه زار مدرستنا مرة بصورة مفاجئة لا يتخيلها عقل ٠

كان الوقت باكورة صباح لم يحن فيه موعد الدوام الرسمي وكانت طلائع التلاميذ بدأت تتوافد على المدرسة وتتجمع في ساحتها الخارجية لأن باب المدرسة لا يفتح لهم إلا إذا أذن الوقت الرسمي ٠

في هذه الاثناء كان مدير المدرسة قد سبق غيره الى المدرسة ففتح له الباب ليأخذ طريقه الى غرفة الادارة ثم يبدأ جولته بين الغرف والردهات على عادته كل

كان يعلم أن باب المدرسة مقفل وأنه ليس في البناية غيره ولهذا ذهل عندما طرق اذنه صوت خطوات ثقيلة تنزل الدرج من أعلى البناية فوق ترى هل في المدرسة من بات فيها من المعلمين أو غيرهم فقام ينزل درجها بعد أن أصبح .

ليس في هذا ما يصح فقد مر بالغرف والردهات من دقائق ولم يكن ثمت احد فهل يسكن المدرسة عفريت او شيطان ؟؟

كل هذه اسئلة مرت بذهنه وهو ينصت الى الخطوات الثقيلة تتابع نزولها في أناة وتؤدة ولاحت منه التفاتة اخيرة فاذا الملك حسين شاخص امامه بجبته وعمامته وهيكله الذي ينكره وخطواته الثقيلة التي يتابع بها نزوله .

صعق بالمفاجأة وارتعدت مفاصله فهذا الشاخص امامه لا يمكن أن يقال انه الحسين فالحسين لا يترك قصره ليبيت في المدرسة ثم لا يصح عقلا أن يكون قد بادر اليها قبله لأن باب المدرسة مقفل لا يفتحه الا البواب ولو فتحه البواب للحسين لأخبر المدير بما حدث .

أيكون هذا من عمار المدرسة إن كان للمدرسة عمار من العفاريت بداله أن يتقمص شخصية الحسين ليعبث به او بالمدرسة .

كانت أفكارا مريعة ما لبث أن سمع في غمرتها صوت الشاخص أمامه يقول - أين مدير المدرسة . لماذا هذا اللعب ، أين المدرسون . لماذا لم تبدأ الدراسة وقد أضحى الوقت .

لم يملك المدير حواسه في غمرة الاضطراب لهذا لم ينبس بشفة ولعله يفهم شيئا مما يقال بدليل انه ترك الشخص يتابع نزوله في الدرج دون ان يحرك ساكنا .

ومضت دقيقة سمع بعدها صوت باب المدرسة يفتح للشخص وسمع صوته يهيب بالبواب: هذا لعب هذا لعب اين مدير المدرسة اين المدرسون وارتهكت مفاصل المدير في مكانه فتهالك على نفسه حيث كان يقف وراح في شبه غيبوبة لم يتنبه منها حتى تعالى النهار وأقبل المدرسون ليجدوه ملقى بين الدرج

وعندما تسامع الناس الخبر وتسنموا حقائقه ظهرت القصة تأخذ دورها المتطرف بالشكل الآتي ·

نمى الى الحسين أن موظفي البلدية لا يبادرون الى أعمالهم من الصباح الباكر فاراد أن يمتحن الأمر بنفسه فركب اليها مبكرا ودار بين غرفها فلم يجد احدا حتى اذا انتهى الى سطحها رأى ان الجدار الفاصل بينها وبين المدرسة قصير ورأى الى جانبه سلما خشبيا فتراءى له أن يصعد السلم لينزل منه الى سطح المدرسة وكان ما فعل فقد هبط الى السطح وشرع ينزل درجات المدرسة على أمل أن يتحرى سير العمل فيها ونسي أو تناسى أن وقت الدوام لم يحن في المدرسة كما كان الأمر في شأن البلدية ·· وهكذا رأيناه يفاجيء المدير بالصورة المهيبة التي فاجأه بها ولا يغادر المدرسة حتى يترك صدى صوته يملأ فراغها وفراغ بناء البلدية بجلجلة رهيبة جعلت الموظفين في البنايتين يحلمون بالبكور الى اعمالهم قبل مواعيدها باوقات غير قصيرة وهو لون في المغالاة يبدو في رأيي انه كان يكلف الايام اكثر من طباعها ·

١٦

كرسي الأستاذية

توالت السنون بنا ونحن مأخوذون بمراكزنا التي كانت تتيح لنا ونحن في سن مبكر أن نتحكم في مصائر مئات الأطفال (نشخط وننخط) ونتقاضى مع ذلك مرتبات شهرية محترمة إذا قيست قيمتها بمعدل نقدنا اليوم فهي تضاهي نحو عشرين ريالا ٠

توالت السنون تمر بنا في ريح لم تكن هادئة كل الهدوء وكيف لها أن تهدأ وبين جدران المدرسة أشياخ لا يتميز بعضهم عن التلاميذ إلا باجسامهم وأجسامهم فقط ٠

ومما أذكره أننا كنا يوما في رمضان وكانت حصص الدراسة في برنامج رمضان تنتهي بأذان الظهر ينصرف التلاميذ على أثرها ولا ننصرف بانصرافهم ٠

لأن المدرسة بردهاتها وفصولها الخالية مجال واسع للجري والنط واللعب بالماء نغرق به ثيابنا وأجسامنا ولا يهمنا في نشوة الجري أن يصيب أثاث المدرسة ما يصيبه من أذى ٠

كان مديرنا لا يشاركنا إلا في قليل من هذا العبث وربما وقف هو وآخر معه على كثب منا يضحكون لمرحنا في تعقل وربما وقف بعيدا منا يستعدي بعضنا على بعض مأخوذا بنشوة لعبنا ٠

ولكنه ما عتم أن ضاق بنا وشعر أن مركزه الرسمي لا يبيح له أن يتضاءل فشخط ونخط على أمل أن يحفظ لنفسه ومدرسته بعض هيبتها ٠٠ ولكن هيهات فليس في البيداء (خواف) وليس بينهم عاقل ٠

وحلت عطلة العيد في اخريات رمضان فكان من حق المدرسة بنايتها وصالاتها وغرفها أن تهدأ بانصرافنا عنها ٠٠ ولكننا لم ننصرف وأنى لنا أن ننصرف ونحن لا نملك متسعا يجمعنا للعبث والجري غير بناية المدرسة ٠

كانت فرحة اتسع الوقت فيها فاشتط العبث واشتط رغم أننا صائمون وليس بيننا من تحدثه نفسه بالافطار فاستأنف المدير شخطه في غير جدوى ٠٠ فأصدر أمره رسميا بأن نغادر المدرسة الى نهاية العطلة فلم نسمع ، فاستصدر من وكيل المعارف أمرا بذلك فلم يسعنا إلا أن نمتثل كارهين وأن نغادر المدرسة آسفين ٠

ونمى الينا أن مديرنا يختلف بعدنا الى المدرسة ويتمتع بهدوئها وحده لا يشاركه أحد فعز علينا أن يطردنا ويستقل بها بعدنا ٠

قال قائلهم : من يبايعني على الثأر (والقائل هو شخصي بالطبع) فانفرد من الصف صديق الملهات ورفيق العزمات إذا اشتدت (الوكبات) عبدالله خوجه وهو يقول : أنا لها !!

وتساءل القوم عن ماهية الثأر وكيف يكون ؟ قلتُ : نحكم اغلاق باب المدرسة بالمسامير فنحرم المدير من غشيانها كما احرمنا فاستصوب أخو الملهات ما رأيت ومشى يتقدمني الى العمل ٠

لم يستعص باب المدرسة علينا فقد كان قفله (شاشاليف) ولكن المسامير كيف نحكمها دون طرق يسمعه (الحادي والمنادي) ياأخا الملهات ؟!

وهنا طرأت فكرة : نحن نخزن في اعلا المدرسة بضعة عشر عودا نستعملها للرايات في أيام الزينة والأعياد ٠٠ هيا بنا نحملها الى الباب ٠٠ ونرى !!

ولو اطلعت علينا ونحن نختلس خطانا في درج المدرسة متلصصين متنقلين بالاعواد لهالك ان يكون للمدرسة أساتذة من هذا الطراز ولملئت منهم رعبا ٠

ركزنا جميع الأعواد خلف الباب دون أن نشدها اليه ثم أفرجنا منه ما يكفي لخروجنا وعدنا نشده في قوة حتى ثبتت خلفه الأعواد بشكل لا يدع مجالا لحركته ٠

ولكن المدير كان أذكى بكثير مما ظننا فإنه عندما عاد الى المدرسة وعندما حاول الباب بكل قوته فاستعصى عليه نظر من فجوة القفل أو من خصاص الباب فشهد الأعواد المركوزة خلفه تمنعه من الحركة ففهم (القولة) ٠

استدعى نفرا من موظفي البلدية جيران المدرسة ليطلعوا على ما رأى ويوقعوا على محضر بواقع الحال ثم رجا الى بعضهم أن يتسلق (بلكونة) البلدية الى المدرسة ويزيح الأعواد عن الباب ففعل وبذلك أحبط كيد المبطلين ٠

واللذيذ في الأمر أنه رفع يشكو أمره الى وكيل المعارف مرفقا به محضر الحال وكان وكيل المعارف يمتاز بطيبة متناهية الى سماحة يقل نظيرها وكان الى جانب هذا يعرف أن مديرنا ممتحن بطائفة لا يزكى عقلها وان كان يحمد لها دأبها في العمل ونشاطها وان على المدير أن يروضها في غير عنف لئلا يحرم نشاطها (روح ياولدي الله يهديهم ـ وسنشوف) ٠

ولقد شاف الموضوع فضيلته لاني عندما بادرت قبل إخواني في أيام العيد للسلام عليه في بيته قص عليّ الأمر كما لو كنت أجنبيا عن القصة وتسمعت إليه في عناية وأدب كما لو كنت غريبا عنها ٠٠ ورأيتني في نهايتها أطلب إليه أن يتفضل فيكل أمر التحقيق اليّ في صورة سرية ٠

« أنا أجر لسانهم إذا أمرتم ثم أسر به اليكم »

(روح ياولدي ٠٠ ربنا يساعدك ٠٠ ويهديك) وطلب الهداية هنا كان يجب أن يتسع لأكثر من معنى ٠٠ ربما كان من معانيه اني مشبوه بالنسبة الى القصة فلا يجب أن تنطق ملامح وجهي بأية حركة تؤيد الشبهة ٠

وانطلقت الى اخواني اعلنهم اني ندبت جاسوسا للقضية فضحكت وضحكوا ٠

ولم تنته أيام العيد حتى ساد الصفاء بيننا وبين مديرنا فقد كان حضرته يتمتع الى هدوئه بكثير من رقة المشاعر كان الى جانب غرامه بمجالس الغناء والطرب لا تلذ له هذه المجالس الا اذا حفلت بالمناكيد من زملائه في المدرسة فما عتم أن ندب لنا من يستحصل خمسة قروش عن كل رأس منا ـ « وتعالوا عندنا قيلة وطرب بعد بكره » وهكذا ذابت القضية وذاب الخصام بين رنات العود وأطباق الشواء ومزاح (المجغين) ٠

وتراءى لي أن أجس نبض القضية في دار فضيلة الشيخ وكيل المعارف خشية أن تأخذ طريقها الرسمي في ادارة المعارف فاستقبلني فضيلته في سن ضاحك « ها ايش سويت »

قلت : جئت اليوم ألتمس الفتوى في موضوع فقهي وكان رحمه الله لا يبسط أساريره شيء ما يبسطها البحث الفقهي وتتفتح نفسه بشكل لذيذ اذا تفتق البحث للنقاش وتوالت عليه الاعتراضات ·

وكنت قد هيأت نفسي بما يكفل انبساط أساريره حتى اذا تم لي ما أردت قلت : هل أبشر الشيخ ؟؟

قال : خير إن شاء الله ؟

قلت : تصالح المدير وجماعته وكانوا من يومين (مقيلين) في بيته

قال : لا بدها قيلة طرب ؟؟

قلت : لا يخلوا الأمر من قصائد وأناشيد اقتضتها فرحة العيد ·· ولكن الذي يهم المدير ويهم اخوانه الاّ تكونوا زعلانين وأن يشمل العفو أوراق الشكوى ·

قال : انها لاتزال في مكانها تحت (المقعدة) هناك ·· فهاتها من أقصى يسار المقعدة ·

وكنت أسرع من اشارته اليها فقال مزقها وقل لاخوانك : ترى لا أسمع بعد اليوم شيئا من هذا رحم الله تلك النفوس السمحة وأغدق عليها من فيضه ما يتكافأ وطيبتها ·

وكنا مغرمين باقامة الحفلات العامة لنشبع فيها ـ من حيث لا ندري رُغبة اعصابنا الى الحركة ·· فكنا لا نترك مناسبة دون أن نحييها باحتفال عام ندعو فيه أعيان الدولة ورجالات البلاد على رأسهم جلالة الحسين ثم نتعاقب نحن ونجباء تلامذتنا على المنبر في كلمات انشائية كان الحسين رحمه الله يحتفي بها ؛ رغم قلة انسجامها وركاكتها ··

وكان رجال المعارف لا يرضيهم تبذلنا دون بقية المدارس التابعة لها في اقامة الحفلات ؛ وتهجمنا على مقام الملك في دعوته الى مثل هذه الحفلات عن غير طريقها ولكنهم لا يملكون حتى الاستنكار ، لاننا كنا لا نقرر مشروع حفلة حتى نسرع الى قصر الحسين ؛ ونرتبط بوعده لحضورها ٠ فلا تكاد ادارة المعارف تشعر بعزمنا حتى تكون قد علمت بأن الحسين قد أجاب دعوتنا فلا سبيل الى العدول عما تقرر !!

ومن أطرف ما أتذكره من نوادر هذه الحفلات أن السلطان وحيد الدين العثماني - وكان ضيفا عند الحسين - شرف حفلتنا في إحدى المرات بصحبة الحسين ؛ وكنت قد أعددت كلمة عن ماضي الحجاز وحاضره ؛ وإذا أردت تدقيق العبارة فالواقع أني حبرت الكلمة على غرار الانشاء المدرسي ؛ وكنا نستفتح كلماتنا بعبارات لها نسقها الخاص من قبيل (من فكر وحقق ، ونظر ودقق ، واستطلع الكتب وأسفارها ؛ والتواريخ وأوراقها ، وجد كذا وكذا ٠ وعلم كذا ، وكذا) ٠

وكان لابد (لخطابي) أو انشائي في هذه المرة أن يتعرض لسيئات الأتراك في ماضي الحجاز على قاعدة النفاق الاجتماعي العام في مثل هذه المواقف الخطابية ، وأن يذكر فضل الحسين في انقاذ البلاد من براثينهم فلم يتسع إدراكي لمراعاة شعور الضيف العثماني الذي كان يجب ألا يسمع كلمة تسيء الى عثمانيته ، ومضيت أستهل خطابي بمالا يليق بالمقام ففطن الملك لبلادة شعوري ، وأراد أن يستدرك الموقف فأهاب بي :

(هاتوا شيئا عن اتحادكم ٠٠ عن تآلفكم) ٠

فلم أفهم كثيرا مما يقول وأنى لي أن أفهم وقد انحصرت مشاعري فيما بين عيني من أوراق مسطورة ، وأنى لي أن أعطيه شيئا عن الاتحاد وانا لا أجيد الكلام الا فيما أسهر على تحبيره وتطريز أوراقه ٠

وعز عليّ في الموقف أن أغادره فاشلا ، فتوقفت لحظة استجمعت فيها

أنفاسي ، ثم استأنفت الكلام في أوراقي نفسها ·· فاستوقفني مرة ثانية ، ثم ثالثة ·· وعندما رأى جمود احساسي صاح بي (كفى ·· كفى) فغادرت الموقف في (أروع) ما يغادره (كسيف)·

ودام اشتغالي في المدارس أعواما في عهد حكومة الأشراف ثم في عهد حكومتنا الحاضرة ؛ وقد علمني التدريس وعلمني طول التجارب ، وعلمتني قسوة الأيام ما لم يتيسر تعليمه عند امهر الاساتذة واكفأ المعلمين ·

ولازمني شغف القراءة وحب التدريس ·· فقرأت قصص أبي زيد الهلالي ، وعشرات أمثالها مما لا يختلف كثيرا عن أسلوب العوام ، ثم تقدمت قراءتي فدرست سيرة ابن هشام ، وتاريخ ابن الاثير ·· فشعرت أنني أتلذذ بأسلوب أرقى مما كنت أقرأ وأحسست أنني أمازج المؤلفين فيما يكتبون ، وأسايرهم فيما يعجبني من آراء ، وأحنق عليهم فيما لا يعجبني ، وأناقشهم في كل ما يحتمل المناقشة والجدل ·

واجتمعت مصادفة بالشيخ محمود ملياني فجاء ذكر المؤلفات والمؤلفين ، وسألني عن الأدب الحديث ورجال القلم فيه · فلم أحر جوابا ، لأن مبلغ معرفتي بمعاني الأدب هو تهذيب الطبع · أما الأدب كدراسة في علوم اللغة ، فذلك معنى لم يصادفني بعد · فليس لي أن أفهمه · وكنا نسميه انشاء كما علمتنا المدرسة ·

ولم يفارقني الشيخ الملياني حتى كنت قد الممت بالمعنى الجديد لكلمة الادب ، دون أن يشعر بجهلي · وكان قد وعدني بأن يبعث لي كتابا أدبيا فرغ منه بالامس ، وأعجب بأسلوبه الجذاب ·

وتناولت الكتاب فاذا هو « الريحانيات » للاستاذ أمين الريحاني ، فشرعت في قراءته في دهشة الرائد الذي امتطى أول طيارة تمخر به عباب الهواء ، وتسلك به سبيلا ليس فيه مكان لما تعودت قدماه على الأرض ·

شاقني هذا النوع من الكتابة ؛ وراقتني فيه عذوبة الألفاظ وطرافة الخيال .

وتمنيت لو أجد من أمثال هذه المطالعات ٠٠ ما يملأ أوقاتي جمالا ٠

وعثرت بعد أيام على (حديث القمر) للأستاذ الرافعي ٠٠ فلذت لي مناجاته الرائعة ، وترك أسلوبه الأخاذ في نفسي أثرا ٠ فرحت أنسج على منواله تقليدا ومحاكاة وأضيف الى دفاتري صفحات من لون جديد ٠

وقرأت بعدها عدة مؤلفات لجبران خليل ٠٠ فاستطاع أن يستحوذ على مقدراتي في الحياة ، وأن يترك أثره في توجيهي ، ويعلمني كثيرا من شذوذه على القواعد العامة ، وما تعارف الناس عليه من أوضاع واصطلاحات ، وصاغني صياغة عاتية لا تقر المبادىء التى لا يقرها عقل ، أو منطق ولا أنكر ما حبيت أن شكيمة جبران وقوته فيما يكتب ازاحت عن نفسي أرتالا ورثتها من بيئتي في البيت ، والكتاب والشارع ، وفتحت عيني على كثير من حقائق ما تلقيته من (ستى!!) وحلت غير قليل من العقد التيكانت تنتاب نفسيتي ، وأعدتني لتربية جديدة لا تمت الى كل ما صادف حياتي الماضية ٠

فليت أصحاب الاقلام يدركون في كل وقت مبلغ ما تتركه نفثاتهم الحية في تنشئة الأجيال ، وليت المرتزقة منهم يخشون الله في ما تدبجه أقلامهم ، ولا يسيئون بمينهم ، وما يزيفون الى مقدرات بلادهم في أشخاص من يوجهون من جمهرة قرائهم ٠



١٧
بين الصحافة والأدب

كان أقصى ما يهم العثمانيين في هذه البلاد شرف الانتساب الى خدمة الحرمين وان يدعو خطيبها باسمهم وأن يعتبروا أصحابه مجموعة متواكلة اعتكفت بجوار الحرم لتطوف الحجاج وتخدم الزوار وتدعو للخليفة السخى ٠

لذلك لم يدر بخلدهم أن يطوروا ولو الى الحد الضئيل الذي خدموا فيه بلادا عربية أخرى كانت محكومة لسلطانهم حتى المدارس عز عليهم أن يؤسسوها الا ما كان منها لخدمة قضيتهم في تتريك العرب أو إعداد جيل صالح لخدمة وظائفهم المحدودة ٠

ولولا أن نفرا من المسلمين في الهند أو الحجاز أخذتهم الحمية لهذا البلد فتطوعوا بتأسيس بعض المدارس كالمدرسة الصولتية والفخرية في مكة والفلاح في مكة وجدة ودار العلوم في المدينة ولولا الجهود الخاصة التي بذلتها بيوت العلم في مدن الحجاز ممثلة في حلقات المساجد التي كانت تغص بطلابها ٠

لولا هذه العناية الفردية التي كانت تحسب أعمالها لوجه الله وخدمة الوطن لعاش الحجاز في امية شاملة عامة ٠

في هذه الاثناء وكان القرن الرابع عشر الهجري قد أهل هلاله ومض بصيص خافت في سماء الادب كنتيجة للجهود الفردية التي أشرت اليها فاشتهر عبدالمحسن الصحاف وعبدالواحد الأشرم بالشعر في مكة واشتهر عبدالجليل براده وابراهيم الاسكوبي في المدينة كما اشتهر غيرهم في جدة والطائف اشخاص معدودون لا يتجاوز مجموعهم الكلى أصابع اليد ولمعت شهرتهم في أساليب الشعر التقليدية التي كانت معروفة في عهدهم من تشطير الى تشجير الى معارضة تكثر فيها المحسنات البديعية على اختلاف انواعها ٠

وفي هذه الاثناء تراءى لأولياء الأمر من العثمانيين ان يتحفوا الحجاز بجريدة

تصدر عن مكة لتعبر عن آرائهم وتجمع قلوب الرعايا حول سلطانهم فقد فاحت رائحة الدستوريين طالبي الاصلاح في الآستانة واتصل العبير ببعض كبار الموظفين في سائر الولايات ومنها الحجاز فكان لابد من الدعاية لخلق الجو المناسب فكانت (جريدة الحجاز) التي أسس لها عثمان باشا مطبعة خاصة في مطلع هذا القرن اسسها في أجياد فخدمت السلطنة العثمانية كما خدمت الدستوريين العثمانيين بعدهم كما خدمت الحكومة الهاشمية وظلت على خدمتها حتى توسع مجالها واضيفت اليها طابعات وآلات وأدوات من أنواع كثيرة في عهدنا هذا ثم اضطرتها أعمال التوسعة في المسجد الحرام الى الانتقال من مكانها الى مداخل أجياد خلف مالية مكة .

صدرت جريدة الحجاز عن هذه المطبعة في اربع صفحات اسبوعية عام ١٣٠١ وكان يرأس تحريرها مكتوبجي الولاية أي رئيس كتاب الوالي العثماني ويساعده في التحرير احمد جمال أفندى منشيء ديوان الولاية أي المحرر في الديوان واحمد حقي أفندى من كتاب الديوان ثم أضيف اليهم الشيخ محمود شلهوب المعروف كما أضيف اليهم غيرهم من الشباب المخلصين للولاية .

وعندما ثار الدستوريون على الخلافة استطاعوا أن يستخدموا جريدة الحجاز لمبادئهم الدستورية ثم أنشأوا الى جانبها في مكة جريدة (شمس الحقيقة) باللغة العربية ولم يصدر منها الا عدد واحد ثم جريدة (الاصلاح) في مكة وقد ندبوا لتحريرها (أديب الهراوي) وهو من صحفيي لبنان ولم يصدر منها الا نحو ٢٠ عددا ثم عطلوها بعد ان أنسوا منها ما لا يعجبهم .

ويقول الاستاذ محمد سعيد العامودي في كتابه « من تاريخنا » انه لم تكن لهذه الصحف قيمة أدبية أو سياسية أو اي أثر في تكوين الوعي أو توجيه الفكر وينقل نموذجا من جريدة الحقيقة للتدليل على مستوى الكتابة في هذه الصحف وقد جاء فيه :

(ينبغي لمن شاء أن يكاتبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فان

الأفكار الراقية التي لا تعميها الأغراض الشخصية ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله الى مصلحة الوطن العمومية ٠٠ الا ترى سيدنا موسى كليم الله عليه السلام قال اخرقتها لتغرق اهلها ولم يقل لتغرقني نظر في ذلك لغيره وقدمه على شخصه في وقت الغرق الذي لا يعرف الانسان فيه إلا نفسه فليخش الله الكاتبون وليتق الله المحررون ولا يحرروا لجريدتنا الا الحقيقة لانها شمس الحقيقة ثم ليكتبوا في دائرة واجبات الصحافة الحرة التي ذكرناها سابقا لأن جريدتنا تبتعد عن المثالية وماضاهى ذلك،نسأل الله التوفيق لسعادة الوطن ٠)

في هذه الاثناء كانت رغم هذا قد لمعت في سماء الشعر اسماء كان اشهرهم محمد صبحي طه ثم ما لبثت ان خبت وضاعت في غمرة الحياة ٠

وثار الحسين على الدستوريين العثمانيين ثورته التي قدمنا عنها فالغى مدارس تتريك العرب وانشأ على انقاضها مدارس عربية ٠٠ انشأ في مكة اربع مدارس ومدرسة واحدة او مدرستين في بعض المدن الظاهرة ٠

واستقدم الشيخ كامل القصاب من سوريا ليدير ادارة المعارف وشكل له هيئة من علماء المسجد الحرام ليساعدوه على توجيه منهج الدراسة الوجهة التي يراها الحسين جديرة ببلاده ٠

كانت مدارس اولية او ما فوق اولية بقليل ولكنها الى جانب مدارس الفلاح والصولتية والفخرية استطاعت ان تفتق الوعي الى حدّ وان تنشىء جيلا قارئا يتعشق المطالعة ويلذ له التوسع فيها فكان هذا الجيل الذي نسميه اليوم ادباءنا الشيوخ ٠

كان رحمه الله لا يرى التوسع في المعرفة بالشكل الذي نراه اليوم كان لا يستحسن بعث البعوث الى المدارس الراقية في الخارج ولا الى الجامعات ٠٠ كان يقول : تكفينا علومنا حسبنا الاّ نستقي من علوم الفرنجة ولهذا كان نصيب الشبيبة في ذلك العهد محدودا ٠

ومع هذا كانوا يتمتعون بارواح حية متوثبة واصدر الحسين على أثر استقلاله

بالحجاز جريدة القبلة عام ١٣٣٤هـ لتدافع عن آرائه في النهضة العربية وكان يحررها فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب واحمد شاكر الكرمي ثم صدرت جريدة الفلاح لصاحبها عمر شاكر وهي جريدة سورية كان صاحبها يصدرها في دمشق فلما سقطت سوريا في يد الفرنسيين هاجر الرجل الى مكة واستأذن الحسين في إصدار جريدته بمكة فصدرت ثم ما لبث ان اختلف مع الحسين فتعطلت الفلاح عن الصدور واستغنى الحسين عن المحررين في القبلة من السوريين فندب لتحريرها الشيخ الطيب الساسي كما ندب الشيخ حسين الصبان لادارة اعمالها ·

وصدرت في عهد استقلال الحسين مجلة الزراعة على أثر تأسيسه مدرسة زراعية ولكنها لم تتجاوز العدد الثالث ·· في هذه الاثناء كان بعض شباب الجيل قد علق القراءة وتعشق الأدب في مجال ضيق لا يتسع لغير الهمس الخافت ذلك لأن الحسين رحمه الله كان شديد الحذر وكان لا يرى للاقلام حقا في أن تصول ، حسب الشباب ان يواصل نشاطه في قراءة أمهات الكتب الموروثة والاّ يشغل نفسه بأدب مستحدث ففي جريدة القبلة ما يغنيه ·· وبذلك مضى عهد الحسين رحمه الله دون ان يترك اثرا ادبيا يذكر الا ما كان يعتلج في صدور بعض شباب ذلك العهد وعند ما تنازل الحسين وانتقلت حكومته الى جدة لتحاصر فيها تحت حكم الملك على وانتقل بانتقال الحكومة اعيان الاهالي والمتعلمون والشباب صدرت في جدة جريدة الحجاز وكان صاحب امتيازها الشيخ محمد صالح نصيف ، عندئذ وجدت الصدور متنفسا في بعض المجالات وقرىء للشباب من مكة وجدة بعض النفثات الشعرية والنثرية ·

واستقر الأمر في الحجاز للملك عبدالعزيز رحمه الله فانتقلت جريدة بريد الحجاز الى مكة ليصدرها صاحب امتيازها الشيخ محمد صالح نصيف باسم جريدة صوت الحجاز الى جانب الجريدة الرسمية التي اصدرتها الحكومة الجديدة باسم (ام القرى) التي كان برأسها الشيخ يوسف ياسين ·

بدأ الشباب كخطوة أولى يجدون متنفسهم في جريدة صوت الحجاز وبدأت

بعض اسمائهم تظهر بين حقولها في ضور شعرية أو نثرية في مجالات تكاد أن تكون مقتصرة على الأدب أو نقد الشؤون العامة في المجتمع أو بعض الدوائر الرسمية ذات الاختصاص الشعبي ٠

وبدأ التعارف بين بعض الشباب في مكة فكانوا يجتمعون ويتزاورون ويتراسلون وتتصل مراسلاتهم بالشباب في جدة والمدينة في محور لا يتعدى المجال الادبي نثرا وشعرا ووقع بعضهم في شراك البعض الآخر فكانت معارضات وانتهت بنفر منهم الى مهاجاة ثقيلة ولكنها في الوقت نفسه كانت تمثل الوانا من الشعر الحي المتوقد لو استطعنا تنقيته وتسجيله لكان أثرا خالدا يصور الجيل الذي عاشه ادق تصوير ٠

في هذه الفترة المبكرة لمع في مكة من شبابنا الاساتذة محمد سرور الصبان ، عبدالوهاب آشي ، محمد سعيد العامودي ، جميل مقادمي ، عمر عرب ، حسين نظيف ، كانوا يتحلقون حول الشيخ محمد سرور فقد كانت له مكتبة في الشارع اليوسفي لبيع الكتب الادبية وكان له مركاز في ردهة المكتبة يجمع بعضهم احيانا كما كان بيته في المسفلة مجمعا لسمرهم في أكثر الليالي كما كانت للشيخ حسين نظيف خلوة عند باب العتيق تجمعهم في بعض ساعات النهار وتتابع ظهور الاسماء في مكة لتضاف الى ما قدمت وليكونوا جميعا ما نسميه بالرعيل الاول فكان الأساتذة محمد حسن فقي ، حسين سرحان ، احمد غزاوي واحمد العربي ، عبدالسلام عمر ، امين عقيل ، عبدالله فدا ، حامد كعكي ، عزيز ضيا ثم محمد سعيد عبدالمقصود واخيرا احمد سباعي اذا قبلوا اضافته لاسمائهم ٠

ولعل في قصة الحاقي في ركاب الرعيل الأول ما يثير الضحك فقد تسامعت بخير هذا النفر وكنت قد علقت القراءة وتعشقت الأدب فعن لي ان اجرب قلمي ٠٠ كنت يومها شابا اشتغل بالتدريس وليس بين الرعيل اياه من يعرف حتى اسمي فأنشأت اجرب قلمي خفية ولكن هل انشر نتاجه في السطح ؟ تراءى لى أن أجمعه فيما يشبه المجلة أو الكتاب وأقتحم به هدوء الشيخ محمد

سرور أبرز الشلة يومها ·· أعتقد أن الشيخ محمد سرور ضحك يومها ملء صدره من هذه الخبصة بعد أن قرأ بعض وريقاتها ولكنه الشيخ محمد سرور الذي يعرف كيف يتصرف في ملامح وجهه !! حتى لا تعبر الا بما يريده هو!!

قال الشيخ ليس لي جريدة لانشرلك فيها · قلت هل يصلح ليطبع ككتاب ؟ وهل تشاركني في طبعه ؟ قال لا بأس · قلت كم يكلفني طبعه ؟ قال يكلفك عشرين جنيها قلت سأدفع منها عشرة وتدفع الباقي ·· قال لا بأس ·

قدمت اليه الكتاب مصحوبا بعشرة جنيهات « حيلة الشب يارب » وسألته عن رأيه في اسم الكتاب قال اقترح ان تسميه (حبر على ورق !!)

كان يتعين عليّ ان افهم ولكن الذكاء محدود كما ان فرحتي بنفسي كمؤلف جديد طغت حتى على هذا الذكاء المحدود ·

اودع الشيخ محمد سرور الكتاب والنقود أحد الرفوف في بيته (في ستره ومصونه) كما يقولون وكتم الدم على القيح واذا كان لي ما أحمده عليه فذلك أنه لم يفضحني ·

فين ياشيخ محمد الكتاب ؟؟ والله ما وصل ·· كمان ما وصل ·· كمان ما وصل ·· مضت شهور تتلوها شهور وأنا أحلم بالكتاب - غلافه أصفر لا أخضر ·· متين ·· لا ·· رفيع ·· طويل ·· لا قصير !! والشيخ محمد هو الشيخ محمد

(ما تعرف تأخذ منه كلمة) وعلى عادته لا تنطق تعابير وجهه بحرف !!

واعتزمت السفر الى مصر بعد هذه الشهور الطويلة : ايش رأيك ياشيخ محمد تعطيني كتاب للمطبعة استلم منها الكتاب ؟

كان يتعين على الشيخ محمد ان يرتج عليه ولكنه كعادته يترك الحلول لاوقاتها : تفضل هذا الكتاب وهذا عنوان المطبعة ·

وانتهيت الى المطبعة وكان يديرها الاستاذ الزركلى ·

شويا ولدى · هاى كتاب ماشفته ·· ماوصل الى!!

ترى هل ضاع ؟ـ والله ما بعرف !!

وعدت بعودتى من مصر الى الشيخ محمد اسأله ففكر طويلا ثم قال عادت اصول الكتاب وعادت الفلوس لا اعرف كيف فانقشع الغبار عن ذهنى بدأت افهم .

قلت هل تأذن لى بالكتاب قال تفضل هاهوذا الكتاب وهذه هى (الفلوس) .

حاولت في هذه الاثناء ان انشر بعض ما اكتب تحت تأثير أنى اصبحت مؤلفا بشهادة الشيخ محمد وشهادة العشرة جنيه .. ولكن رئيس تحرير صوت الحجاز يومها الشيخ عبدالوهاب آشى رفض ان ينشر لى اول مقال ارسلته فازداد كسوفى دون ان احرك ساكنا او اذيع سرا لا كما يفعل بعض ناشئتنا اليوم !!!

ولما خلف بعده السيد محمد حسن فقى في رئاسة التحرير كان فيما يبدو محتاجا لما يملأ به الجريدة في اول يوم من ايام عمله فالتجأ الى درج المهملات ليعثر على مقالى المهمل وينشره .. كان يوما مشهودا اقفلت فيه الباب على نفسى ورحت ارقص على نغمات المقال وانا اقرأ واردد ما اقرأ بترنيم نشوان .

انها المناسبة اسوق فيها نفسى الى المشرحة لتأخذ ناشئتنا الجديدة ما يهمها من دروس المشرحة ولا املك ان اسوق غيرى من كبار الادباء الى التشريح وان كنت واثقا ان ما اصابهم لا يقل بحال عما اصابنى .

ولمعت في هذه الاثناء في جدة والمدينة اسماء تضاف الى الرعيل الاول منها في جدة الاساتذة محمد حسن عواد ـ حمزة شحاته ـ محمود عارف وفي المدينة الاساتذة عبدالقدوس الانصارى ـ محمد حسين زيدان ـ على حافظ ـ عثمان حافظ ـ عبدالحق النقشبندى ـ الى غيرهم مما لا استطيع استقصاءه في المدينة او في جدة لقلة اختلاطى بهم يومها ولابد انها كانت لهم مجتمعات وندوات يستطيع غيرى من المدينتين ان يتحدث عنها باسهاب لا اعرف تفاصيله .

وأستأنف عودتى الى مكة مرة اخرى لان من بين الملحقين بالرعيل الاول

شابا يتعين عليّ ان اقف عنده بعض الوقت هذا الشاب هو المرحوم محمد سعيد عبدالمقصود تعشق الادب واقحم نفسه في زمرة المتأدبين فابرز نشاطا قليل المثال كان يعمل في حسابات جريدة ام القرى وكان يديرها ويحررها يومئذ الاستاذ رشدى ملحس وعند ما نقل الاستاذ رشدى الى الرياض للعمل في قصر الملك عبدالعزيز رحمه الله اناب عنه في الادارة والتحرير اخانا عبدالمقصود .. نسى عبدالمقصود انه يحرر جريدة رسمية ليس لها ان تتخطى حدود البلاغات والنشرات والاوامر الرسمية وراح يفتح لقلمه فيها مجالا بتوقيع الغربال غربل فيه اوضاع البلاد وتقاليدها كما غربل نفسه في مقالات مطولة متسلسلة كانت تتميز بجرأة غريبة لم تألفها مجتمعاتنا بعد .

بهذه الجرأة استطاع ان يقفز من ذيل القائمة الى صدرها ليقود اخوانه الى ندوات واجتماعات كان لها صداها المدوى .

كان يجمعنا الى بيته لنناقش شؤون الشباب وعندما اقترح البعض ان يقيم الشباب احتفالا عاما سنويا في منى يدعو اليه علماء الحجاج واعيانهم وادباءهم ورجال الفكر منهم ليستعرضوا الشباب الجديد في هذا البلد ويعرفوا مدى ما انجب اضطلع رحمه الله باهم الاعمال في الموضوع ووجد-والحق يقال للتاريخ - من وكيل وزارة الخارجية السيد فؤاد حمزة والشيخ محمد سرور تشجيعا ادبيا غريب المثال كما وجد في المرحوم الشيخ عبدالله السليمان تشجيعا ماديا له قيمته الفعالة .

واستمر الشباب يقيم حفله السنوى في منى وبعد ان يقدم خطباءه يترك المنبر للحجاج ليتباروا بما عندهم من الوان ولكن ماعتمنا بعد سنوات أن رأينا منبر الحفل وقد بات مثارا للجدل المذهبى ومجالا لدعاوى السياسة المختلفة في العالم، وان اغراضه الادبية ضاعت بين ما يثار فاستغنينا عن الحفل والغيناه .

كان الشباب في هذا الرعيل متوثبا دائم الحركة موفور النشاط، اذكر انه عندما وافت الاخبار بعودة بعثة الطيران التى سافرت الى ايطاليا لتتعلم قيادة الطائرات

وميكانيكيتها قرر الشباب في احد اجتماعاته ان يستقبلهم بحفاوة صارخة فخفوا عن بكرة أبيهم الى جدة واستقبلوهم باسم الشباب على الرصيف هاتفين بحياتهم وحياة الشباب ثم خرجوا بهم الى مدينة جدة محمولين على الاعناق واعلنوا في جريدتهم صوت الحجاز انه سيحتفل بهم عند مدخل جرول وان الدعوة عامة فهرعت زرافات المواطنين في مكة الى مكان الاحتفال ·

ليست هناك مقاعد لاولا مخيمات انما هي قطعة ارض واسعة اختاروها تحت ظل احد الجبال اقاموا في وسطها منبرا لا اكثر وقف امامها الطيارون وازدحم الناس حولهم وقوفا حتى القيت كلمة الترحيب وقصيدة من الشعر النابض ثم انتهى الاحتفال ومشى الموكب في سياراته يقطع شوارع البلدة من ابعد طريق يحف بهم الشباب هاتفين بحياتهم وحياة الامة في اصوات رهيبة رددت صداها جميع الشوارع فتنبه الناس الى ان في البيداء طلعاً ناهضا من الشباب ·

واذكر من قرارات الشباب انه اجتمع مرة وكان الوقت في رمضان وقرر ان تستغنى البلاد عن استقدام الحلوى في ايام العيد لانها صنع اجنبى وان يكتفوا بتقديم نوع من التمر واللوز البجلى اعلنوا هذا في صحيفته صوت الحجاز ونفذوه جميعا في بيوتهم على امل ان يتأسى الناس بهم ولكن العادة التقليدية ابت ان ترضخ لما قرروا الا فى بيوت المتحمسين ·

كما اذكر قصة مشروع القرش فقد قرر الشباب في بعض اجتماعاته تخصيص يوم للقرش فاعلنوا في جريدة صوت الحجاز يستنفرون من يتطوع لخدمة المشروع واعدوا لاستحصال القرش من الجماهير اوراقا في حجم طوابع البريد جعلوا قيمة الورقة منها قرشا ودفعوا بها الى المتطوعين لاستحصال ما يستطيعون استحصاله من بيعها على الجماهير وكانوا يرجون ان يعيدوا الكرة سنويا حتى تتجمد في صندوق القرش مبالغ تبنى لهم مصنعا اومعملا يفيد البلاد ولكن بعض المتطوعين تباطأ في استئناف العمل عند خطوته الثانية فتخاذل المشروع وبقيت حصيلة القروش في عامه الاول محفوظة كوديعة في البنك فليت شبابنا الجديد

يستأنف ما فات على الشباب القديم فيسعى لتأسيس جماعة يتطوعون للعمل من جديد ويستطيع الشباب الجديد اذا اثبت جدارته عاما بعد آخر ان يستحصل الحصيلة القديمة ليضيفها الى تحصيله الجديد ·

ودعا المرحوم الاستاذ محمد سعيد عبدالمقصود الى ابراز الادب الحجازى في مؤلف يسجل آثارهم فاستجاب الشباب لدعوته في مكة والمدينة وجدة وانهالت الرسائل تحمل انتاج الادباء والشعراء فشكلت للقراءة والفحص لجنة كانت تجتمع يوميا حتى تمت لها المجموعة التى صدرت باسم (وحى الصحراء) في طباعة انيقة التزم اخراجها وانفق عليها محمد سعيد عبدالمقصود وعاونه على اعدادها صديق له كان من الطلاب يومها هو الاستاذ عبدالله بلخير المدير العام للاذاعة والصحافة فيما بعد ·

وزخرت مكة يومها بعديد من الفتيان كانوا دون سن الشباب او حولها كنا نسميهم الناشئة استفزهم عمل الشباب في(وحى الصحراء) فقرروا ان تكون لهم مثل مجموعة وحى الصحراء (ليش هما موا حسن منا) وكان محور الحركة كهلاً معروفاً الى اليوم بنشاطه رغم سنه الذى اوفى على الستين او كادىذلك هو الاستاذ عبدالسلام الساسى ·

استطاع ان يجمع اليه فريقا من الطلبة النابهين الذين اطلقنا عليهم يومها ناشئة لنحتفظ بمراكزنا في طليعتهم كما كان يتراءى لنا،كان منهم الاساتذة اليوم عبدالله عريف ـ حسين عرب ـ هاشم زواوى ـ السيد على فدعق ـ حمد الجاسر ـ عبدالمجيد شبكشى ـ حسين خازندار ـ محمد على ـ قطب عبدالحميد مشخص وغيرهم وغيرهم ·

استطاع الساسى ان يجمع اليه رصفاءه الذين ذكرت وان يصدر بمساعدتهم مجموعة اسموها (نفثات ـ باقلام الشباب الحجازى) وكانما ارادوا بهذا ان يضعوا في عيون الشباب انتاجهم ليثبتوا انهم شباب لا يجوز ان يطلق عليهم معنى الناشئة هؤلاء الناشئة كما كنا نصر على تسميتهم او الشباب كما كانوا

يؤكدون لانفسهم رغم انوفنا اصبحوا اليوم كهولا او شيوخا واستطاع اكثرهم ان يتخطوا الحدود الفارقة بينهم وبين من سبقوهم الى مجال الادب وربما انكروا حتى فارق السن وأبوا الا ان يلحقوا اسماءهم بقائمة الرعيل الاول ·

كأنه بين عيني الآن يوم كان الساسي والعريف والعطار والزمخشري والزواوي والخازندار والفدعق والعرب وكثير من امثالهم الناشئين ينظرون الينا اصحاب الرعيل الاول نظرة فيها كثير من الدهش ·· كنا في رأيهم موهوبين بشكل ممتاز كان هذا قبل ان يبرزوا وقبل ان تلمع اسماؤهم كانوا يقرأون ما نكتب بنهم ولا اذيع سرا اذا قلت انهم كانوا يلاحقوننا صباح مساء في المطبعة وفي مكتب الجريدة متطوعين بخدماتهم للجريدة على أمل ان يصبحوا اندادا لنا ولم يدر بخلد بعضهم يومها انه سيحقق في مجال الادب ما حققه اليوم من نجاح ·

في صحيفة صوت الحجاز

قلت ان لادباء الرعيل الاول ان يقبلوا درجي بين اسمائهم بعد ان حاولت التأليف بشهادة الشيخ محمد سرور وبعد ان حاولت نشر بعض انتاجي رغم ما لاقيت من اعراض بادىء ذي بدء .

واضيف هنا انه كان لسني كبير دخل فيما يبدو فقد ادركتني (هلوسة) الادب في سن متأخرة فبدأ الادباء يقرأون لكاتب جديد لايجمعهم به جامع ولم يسبق ان عرفوه الا من اسمه في ذيل ماجد عليهم من كتاباته .

ومضت ايام عرفت في اثنائها الاستاذ فؤاد شاكر فرشحني للعمل كمحرر في جريدة صوت الحجاز تحت ادارة الشيخ محمد صالح نصيف فكان له فضل المعلم في كثير مما اكتب ..

كان لا يجيد صناعة الحرف ولكنه كان ثاقب الذهن يمر بما اكتب مرور الحاذق الذي يعرف كيف ينصرف الحرف .

وعندما انتقل امتياز الجريدة الى الشركة العربية للطبع والنشر برئاسة الشيخ محمد سرور الصبان طلبني لانضم اليه كمدير لاعمالها بعد ان اختار لتحريرها الاساتذة عبدالوهاب اشي ومحمد حسن فقي وحسن عواد فكنا يدا واحدة اشاركهم في اعمال التحرير ويساعدني بعضهم في بعض اعمال الادارة .

كان راتبي في هذه الاثناء لا يتجاوز خمسين ريالا وكان لكل منهم مكافأة يتقاضاها شهريا لا تزيد عن ثلاثين ريالا .

وزيد راتبي على مر الايام او السنين ان شئت فاصبحت اتقاضى تسعين ريالا شهريا لقاء عمل كمدير لشركة الطبع والنشر ومدير للجريدة ورئيس مسؤول عن تحريرها ومدير لمطبعتها .

كان راتبا يستحق الحسد في نظر الكثير رغم ان اعمالي كانت شاقة ومرهقة ..

واذا اضفت الى هذا اعمالى الفخرية يومها في سكرتاريات الدفاع عن فلسطين والاسعاف ولجنة تنظيم مكتبة الحرم ولجان غيرها نسيت اسماءها علمت مبلغ ما كنت اعانيه من نصب ٠

كانت الصحافة يومها جديدة في بلد جديد لم يألفها وكان يزاولها من امثالى شباب جديد ما عركته الحياة وكان يشرف علينا معلمون جدد حذقوا ابواب الفقه ودرسوا علوم البلاغة وامعنوا طويلا في دواوين الشعر دون ان تمر بهم اساليب الصحافة ٠

اما نحن فلم تكن مقومات الصحافة عندنا خبراً وصورة بقدر ما نراها وسيلة لعلاج آرائنا الاجتماعية في الحياة ٠

وكنت احدالمتحمسين لقضايانا الاجتماعية اتمنى لو استطعت ان افرغ كل ما يدور في رأسي من افكار شابة وان اذيبها حروفا مقروءة في مقالى الرئيسي ولكن البيئة لا تميل لمثل هذا الشطط فقد عاشت محافظة بكل ما في هذا من معنى وهي تأبى عليك الا ان تعيش رزينا وان تخنق في نفسك صبوة الشباب لئلا تزحف على ما الفت او تهاجم ما ورثت ٠

كان يصرخ بي الصارخ وانا امشي في عرض الطريق على اثر كلمة نشرتها انقد فيها بعض تقاليدنا ـ « ياجماعة فضحتونا الله يفضحكم ٠٠ احنا ناس عشنا مستورين ٠٠ الناس تقدرنا وتقدر بلدنا والحجاج يقدسونا حتى جيتونا بفضايحكم ياشباب ٠٠ عسى النار تشب فيكم ونستريح منكم !!! »

فاذا قلت ان الناس تقدرنا اكثر اذا كنا صريحين مع انفسنا واننا لا نتقدم في سلم الحياة الا اذا تكاشفنا بما نحس من ادوائنا فسوف لا تسمع ما يقنعك او يرضيك ٠٠

كتب إليّ مرة من يقول: « يجب الاّ تنشر شيئا من اخبار غير المسلمين والا فامنع الجريدة عنّي واحذف اسمي كمشترك فيها » ٠

وكتبت مرة انتقد بعض تصرفاتي كمطوف فثارت ثائرة نفر من المطوفين

وهددوني بالضرب او اقلع عن مثل هذا فالجأني التهديد الى اختراع قصة خرافية تعالج بعض شؤون المطوفين في اسلوب رمزي ٠

ادعيت ان احد شيوخ الجن زار بلادنا كحاج ولما عاد نشر عن مشاهداته فصولا مطولة في صحيفة كان يصدرها جماعة من بنات الجن يسكنون الربع الخالي واني اهديت بعض هذه الصحف فانا اترجم بعض ما جاء فيها ٠٠

وبعد ان نشرت عدة حلقات غضب بعض المهيمنين على الصحيفة وجاء من يمنعني عن نشر بقية المسلسل لان محررها لا يعرف لغة الجن فهو يتخيل خيالات كاذبة ولا يصح لمثله ان يوافق على نشر الكذب ٠

وكنت متحمسا لتعليم الفتاة بشكل حاد فانشأت اكتب في اسهاب محبذا تعليمها بشكل أثار عليّ حفيظة الكثير وعرضني للنقد اللاذع فرأيتني اتحايل على الفكرة ٠

شرعت اكتب بتوقيع (فتاة) فصولا متسلسلة جعلت الفتاة فيها تصف نشأتها التعليمية ومانالها من عناية ابيها واخيها حتى تذوقت معنى الحياة وبدأت تنمو بافكارها الى مستويات باتت محسودة عليها ٠

كتبت هذا في بحوث مستفيضة فلم البث ان وافانى تعليق لفتاة لها شخصيتها المعروفة بين بيوتات مكة فتركت المجال يتسع بينها وبين الشخصية الخيالية حتى طال ، وحتى ظن القراء انه نقاش جاد بين شخصيتين لا يشك مرتاب في جهودهما ٠

وزارني في احد الايام عين من مكة يسألني ان اصارحه باسماء الفتاتين ٠ قلت ولكن النظام لا يبيحني هذا ٠ قال ولكنني انوى خيراً ٠ فانا قادم على زواج ويسرني ان اجد الفتاة المتعلمة التي تسعدني ٠

قلت اما والامر ماذكرت ٠ فثق اني لسوء حظك احد الفتاتين !! اما الثانية فهي من بيت فلان !!

فلم يملك ان سمع اسم هذا الفلان حتى اسرع بطلب يد المصونة وهي اليوم

والدة لخمسة من شبابنا اشرفت على تنشئتهم اشرافا لا تحسنه أم جاهلة ٠

وكانت جريدة صوت الحجاز تصدر في بعض المناسابات اعداداً ممتازة ٠ فحدث مرة ان اصدرت بمناسبة عيد الفطر عددا ممتازا٠

وتوزع العدد ليلة العيد ٠٠ وبينما أنا في طريقى لبعض حاجاتى في السوق - وكانت نسخ العدد الممتاز قد غمرت السوق - اذ طرق سمعى تعليق صحفى صادر من دكانة كنت واقفا الى جانبها ٠

والتفت ، فاذا المعلق (فقى كتاب) يقع كتابه الى غير بعيد من بيتى ، وكنت آخر من يتوقع أن يقرأ مثله جريدة ما أو يهمه ما فيها فضلا عن أن يعلق على ما تنشره ٠

ولذّ لى أن أتطفل على بعض تعليقاته من حيث لا يشعر لعلى أغير ولو بعض رأيى فيما كنت أتوقع منه ، فاقتربت من موقفه ورحت أرهف أذنى لتعليقه فاذا هو يقول : « في أخبار اليوم من جريدة صوت الحجاز ، ان الدولة العثملية (كذا) أسست حكومتها من جديد في افريقيا بعد أن وصل اليها أحد أولاد الخلفاء القدماء وتولى فيها عرش الخلافة » ٠

هالنى الامر واشتدت غرابتى لخبر كهذا ينشر في جريدتى دون أن أطلع عليه فرأيتنى في غير وعى ألتفت اليه لأسأله متى وفي أى صفحة نشر هذا الخبر ؟

فما زاد على أن أولانى نصف وجهه وهو يقول : « لو كنتم تقرأون الجرائد لما فاتكم أخبارها » ٠

قلت : لقد قرأت جريدة اليوم ولكن ربما فاتنى هذا الخبر فهل تتفضل فتطلعنى عليه اذا كانت لديك صحيفة أو تشتريها من أحد الباعة ؟

قال وقد التفت يواجهنى في صدر مرفوع : « حتى اذا قرأتم فأنتم لا تفهمون !! »

قلت - وقد لذ لى كبرياؤه : « اذا كنت لا أفهم ما أقرأ فما على مثلك وقد

افهمه الله الا ان يتولى فهمى » ؟

اطمأن لتواضعى فعمد الى سجادة كان يتأبطها ليخرج منها نسخة العدد الممتاز وكانت مطوية بعناية لامزيد عليها وراح يقلب صفحاتها حتى وضع يده على الخبر المزعوم وأشار بيده يأمرنى أن أقرأ ٠

نظرت فاذا الخبر كتبته يدى نقلا عن صحيفة خارجية وقد جاء كما يأتى :

« في بعض الاخبار ان لؤلؤة من ممتلكات الخليفة العثمانى عرضت للبيع في أسمرة بالمزاد العلنى وقد تغالى في شرائها بعض التجار من افريقيا الوسطى لتتبوأ عرشها في بلاده » ٠

الى هنا انتهى الخبر ، فاستطعت أن أفهم انه قرأ خبر لؤلؤة ستتبوأ عرشها عند تاجر افريقى فاستنتج ان ثمة خلافة (عثمانية) ستنشأ في افريقيا ولا أكثر ٠٠

فهل لمثلى أن يبدد خياله فيما فهم وأن يجرح كبرياءه فيما استنتج ٠

قال لى وقد انتفخت أوداجه بتأثير ما حاز من نصر : « ايش بك ٠٠ ليش ما تقرأ ؟٠٠ اقرأ وسمعنى !! »

تراءى لى في هذه اللحظة أن أتخابث ٠٠ فبعض المفارقات ترشح للنكتة الضاحكة في أحلى ألوانها ٠

بدأت أقرأ الخبر على مسمع منه في لعثمة من لا يحسن قراءة الحرف ٠٠ كنت أعجن حروف الكلمة في بعضها فترتبك وتضطرب ولا يستقيم لها معنى أو بعض معنى ٠

قال وهو يشرع يده في وجهى ليؤكد معنى يقول : « هذا طولك وهادا عرضك وانت ما تعرف تقرأ ؟»

قلت : وقد راقنى أن أمضى فيما تخابثت : « أبويا ما علمنى القراءة »

وبدا من سحنته المكفهرة انه لم يسبق له معرفتى رغم ان كتابه لا يبعد عن طريقى وأنا أمر الى بيتى ذاهبا أو عائدا كما بدا انه مستاء لهذا الفدم الذى لا

يحسن قراءة الحرف فالتفت في لهفة يسألني ألدى مانع أن أنضم الى كتابه وهو ضمين بأن يعلمني القراءة في أقصر وقت وراح يحاضرني ليقنعني بأنه لا يليق (بشحط) مثلي أن يعيش في مثل هذا الجهل الفاضح ويؤكد لي ان من العيب أن أستعين بمن يقرأ لي الجريدة أو أي جواب يصلني من أحد معارفي أو تضطرب حروف ما اقرأ بهذا الشكل المزري ·

ولذت لي نكتة الموقف فأسرعت بالايجاب ولم نفترق حتى عين لي الساعة التي يجب أن أحضر فيها الى كتابه ليبدأ تعليمي القراءة ·

وما حان الموعد المضروب حتى كنت على باب الكتاب ، ونظرت فاذا غرفة صغيرة تضم نحو خمسة أطفال لا يتجاوز أكبرهم سن التاسعة ، واذا كل طفل يحتضن لوحه الخشبي وهو يلوح به ليهدد اخوته واذا أصوات تتعالى في جلبة تصك الآذن ·· بينما اضطجع فقيهنا في ركن من الغرفة يتوسد بضعة ألواح من نوع ما رأيت في يد الاطفال وراح في اغراقة عميقة دون أن تؤرقه الجلبة الصاخبة أو تطرد عنه النوم ·

وعندما طال وقوفي تطوع طفل فأيقظه بعد لأى فقام يفرك عينيه ويتطلع الى (الشحط) الشاخص أمامه ·

ـ أهلا أخينا ·· لقد كنت أحلم بك وأنت تقرأ أمامي ·· بشارة خير ان شاء الله ·· بكره تقرأ أحسن قراءة على يدى ·· قول ان شاء الله ·

ـ ان شاء الله ·

ـ هات ياواد ياسعيد اللوح حفك وريني ·· وأسرع الواد سعيد بلوح فناوله فقيهنا فأمرني بالجلوس ثم أمرني بالزحف حتى اصطكت ركبتاه بركبتي وشرع يلقنني لأتابع ما يقول :

ـ « اليف ، اليف

ـ « باء ، باء

ـ « تاء ، تاء

- « ثاء ، ثاء

وحسبني بعد أن تابعته في قراءة الحروف الاربعة أكثر من مرة انني لا أعجز عن قراءتها معتمدا على نفسي فجعل يشير بأصبعه الى موضع الالف ويسألني فأنطقها (جيم) ..

- جيم ايه يا أخينا .. احنا وصلنا الجيم .. هادي اليف .

ثم يشير الى الباء ويسألني فأنطقها (صاد)

- مين قال لك صاد ومتى وصلنا الصاد ؟

ثم يشير الى الباء ويسألني فأنطقها (قاف) .

- انت يا أخينا راجل بليد .. لابدك علشان كده ما تعلمت !..

ثم يعيد من جديد قراءة الحروف الاربعة وأنا أتابعه حرفا حرفا فأقرأ قراءة صحيحة .

ثم لا يكاد يتركني لاعتمد على نفسي في القراءة حتى يعاودني الارتباك .. فاذا الالف أقرأها صادا أو لاما .. واذا الباء أختارلها أي اسم الا اسم الباء .

وتكررت المحاولة عشرات المرات فلازمتني البلادة بشكل مثير حتى كاد التمثيل ينسيني أسماء الحروف نسيانا كاملا .

استشاط الفقيه غيظا ورأيت يده تتحسس بحكم العادة موضع الخيزرانة خلفه ولكنه ما كاد يفعل حتى بدا وكأنه قد تذكر أن تلميذه اليوم لاسبيل الى تأديبه بالعصا .

وتفاقم غيظه فتوترت أعصابه وامتدت يده في عنف الى اللوح الذى كنت لا أزال أتعثر في قراءة حروفه فشده اليه وهو يهيب بي : « قم من فضلك شوف لك فقي غيري يقريك ! »

حروف .. ونقط

● لا تستنكر ترددى في مواطن الإقدام · فقد علمتنى أمى الخوف من العفاريت والاشباح ، وحدثتنى ستى (جدتى) طويلا في شؤون (البعبع) . (والدجيره) ، (وهول الليل) فطبعتانى على التردد ، وهيأتانى للخوف في جميع مواطن الإقدام ·

● اذا رأيتنى عنيدا في بعض مواقفى ·· فلا تستكثر هذا على انسان نشأ في بيئة تدلله ، ولا تجرؤ على معارضته فيما يفيذ ، ولا يسرها شىء ما يسرها ارضاؤه ·· بكافة وسائل التدليل الفاشلة ·

● لعلك تضحك كثيرا اذا علمت أننى أميل الى ألوان من التخريف رغم كراهتى للخرافة ، والمخرفين·· ولكن ضحكك سيزول اذا علمت أننى ورثت سائر انواع التخريف الشائعة في محيطى من عشرات الاجيال ، وأن ما ورثته تغلغل في مجارى الدعم من عروقى ··· وأن نقاوة الدم من هذا التلويث لا يكفيه الا تطهير مستمر ، ولا يستفيد منه الا أحفادى بعد أجيال وأجيال ·

● عندما هرعت الى ستى (جدتى) في بعض المرات خوفا من كلب كان يطاردنى ، قالت : لا تخف فان الكلاب لا ترقى الدرج ·

وقد انطبعت هذه الفكرة في أعمق أعماق ما ينطبع فيه أمثالها وظللت الى سنوات طويلة من عمرى أعتقد عجز الكلاب عن ارتقاء الدرج !! فهل يكفى مثل هذا للتدليل على تحرى ما يجب أن نطبعه في أذهان أولادنا ·

● عندما فرح أبى باهلالى في بيته ·· لم يترك وسيلة من وسائل التدليل حتى غمرنى بها ، وعندما شعر أن تدليله كاد يفسدنى قلب « الجبه » وأذاقنى من ويلات العصا ما لا يحتمله ناشىء ولو علم رحمه الله أنه أخطأ في الأولى ، ولم يصب في الثانية ·· لجنبنى التدليل صغيراً ، وعلمنى كيف أحترم نفسى من هوان العصا ومذلتها ·

● لو أتيحت لنا دراسة أحوال الجناة لوجدنا أن ٩٠٪ من العتاة ، واللصوص ، والقتلة ٠٠ يعانون أمراضا نفسية انتقلت جراثيمها اليهم في بيوتهم من أم تجهل مبادىء التربية ، وأب لا يعرف بناء الشخصية ، ومحيط لا يقدر الغرائز ، ولا يؤمن بفضائل التوجيه ٠

● لا ينقصنا شيء ما ينقصنا توجيه الطفل في حياته الاولى ٠٠٠ فالطفل العاصى ، والطفل المغرور والطفل الذليل ، والطفل البغيض الذى لا يضمر الخير في الحياة ٠٠ كل هؤلاء ضحايا تناط آثامهم بكواهلنا ، ونسأل أمام الله عن جميع ما يقترفون ٠

● اذا رأيتنا أنانيين لا نؤمن الا بمنافعنا ، واذا رأيتنا عبيدا لا نطيع الا من يسومنا ، واذا رأيتنا ظالمين لا ننصف الا من نخشى أن ينالنا ٠٠ فثق أن مربيتنا كان ينقصها التوجيه العالى ٠

● سمعت انسانا ـ تصدى للوعظ يجدف على أهل الحياة ويصورهم فيها بأبشع ما يمثل التصوير فحملت ما رأيت على الغباء وجهل حقائق الوعظ !!

ثم ترددت عليه فرأيته يتربص بالناس ، ويجاهد لأذاهم ٠٠ مؤولا ما يقرأه في مسائل الدين ، ليتسع لما يشعر من هوى نحو أذاهم فعلمت أن في أعماقه خفايا بعيدة الغور ٠

وصادفتنى ظروف وصلتنى بأوشاجه ، وهيأت لى دراسته ٠٠ فاكتشفت في خفاياه ضميرا ينطوى على كراهية للناس ، وحقد عليهم ٠٠ فعلمت أن في نفسه مرضا يستعصى على العلاج ، وأن تحصيله في مسائل الدين لم يلامس روحه ليهذبها أو سجاياه ليطبعها على الرأفة ، والعطف وايثار الناس بالمحبة والخير !!!

فهرست

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
• الجبل الذي صار سهلا (نقد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نقد)	الشيخ حسين باسلامة
• وقفة	الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبدالوهاب عبد الواسع
• الابحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد على مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(ديوان شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• الموزون والمخزون		الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي

تحت الطبع :

• إليا	(ديوان شعر)		الأستاذ حسين عبد الله سراج
• حتى لا نفقد الذاكرة			الأستاذ سعد البواردي
• أحاديث وقضايا إنسانية			الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
• نقاد من الغرب			الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية			الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان			الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الإسلام في نظر أعلام الغرب			الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• قصص من طاغور	(ترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)		الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية			الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)		الأستاذ سباعي عثمان
• من حديث الكتب	(ثلاثة أجزاء)		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(قصة مترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
• مشواري مع الكلمة			الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
• وجيز النقد عند العرب			الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث			الأستاذ أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري
• وحي الصحراء			الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• سباعيات			الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق			الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• الطاقة نظرة شاملة			الدكتور عبدالهادي طاهر
• طيور الأبابيل			الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
• عمر بن أبي ربيعة			الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز			الأستاذ أبراهيم هاشم فلالي
• لا رق في القرآن			الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبد الله عبد الجبار			الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• الجبل الذي صار سهلا		الطبعة الثانية	الأستاذ أحمد قنديل
• التنمية قضية		الطبعة الثانية	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الطبعة الثانية	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الطبعة الثانية	الدكتورة أمل محمد شطا
• عواطف إنسانية	(ديوان شعر)	الطبعة الثانية	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الطبعة الثانية	الشيخ حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الطبعة الثانية	الأستاذ أحمد السباعي
• الحضارة تحد		الطبعة الثانية	الدكتور محمود محمد سفر
• حوار.. في الحزن البارد			الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• البترول والمستقبل العربي			الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• البعث			الأستاذ محمد علي مغربي
• سير وتراجم			الأستاذ عمر عبدالجبار

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عبد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد

تحت الطبع :

• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم



مطبوعات
PUBLICATIONS

صدر منها :

• حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الاملائي		الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية		إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	
• تسالي	(من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) نفد	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد على الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
• القرآن .. وبناء الإنسان		الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ علي عبده بركات
• الطب النفسي معناه وأبعاده		الدكتور محمد محمد خليل
• الزمن الذي مضى	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح إبراهيم
• المجموعة الخضراء	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
• ...		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي / الدكتور لطفي بركات أحمد
- الموت والابتسامة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صد
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار مضيئة. — الاستاذ أحمد شريف الرفاعي
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
- الإمكانات النووية للعرب واسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور ابن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن على في اليمن — الأستاذة أميرة على المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — دكتور نايف بن هاشم الدعيس

تحت الطبع :

- افتراءات فيليب حتى .. وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحى رضوان
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب

- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبد الرشيد حسن عطار
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الإحساء (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- اساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر رفاعي الحلواني
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة/نورة عبدالملك آل الشيخ

كتاب الناشئ

صدر منها :

سلسلة : وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- الديك المغرور ،والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

تحت الطبع :

- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، إعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

كتاب للأطفال

صدر منها :

* لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاء
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

* الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
* السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
* النخلة الطيبة — الأستاذ إسماعيل دياب
* بطوط وكتكت — الأستاذ إسماعيل دياب

تحت الطبع :

- الكتكوت المشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- سلسلة حكايات كليلة ودمنة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- سلسلة حكايات ألف ليلة وليلة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia

هذا الكتاب ..

إنَّهَا « أيَّـامي »

قَدَّمْتُهَا فِي الطَّبْعَةِ السَّابِقَةِ تَحْتَ اسْـمِ « أبوزَامِـل » .

كُنْتُ أَرَدْتُهَا رَمْـزِيَّةً تُمَثِّلُ بَعْضَ فُصُولِهَا جَانِبًا مِنْ حَيَاتِي ، وَتُعْطِي بِجَوَانِبِهَا الأُخْرَى صُوَرًا مِنْ حَيَاةِ الْجِيلِ الَّذِي عِشْتُهُ ..

وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْيَوْمَ وَفِي الطَّبْعَةِ الْجَدِيدَةِ أَنْ أَتَوَسَّعَ فِيمَا يُلِمُّ بِحَيَاتِي إِلَى جَانِبِ مَاعُرِفَ مِنْ سِمَاتِ الْجِيلِ فَتَعَيَّنَ عَلَيَّ أَنْ أَنْسَى أَبَا زَامِلِ وَأَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَارِئِ بِقِصَّةِ « أيَّـامي » ..

من مقدمة الكتاب

نبذة وافية عن حياة المؤلف في كتابه « خالتي كدرجان » سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم (١٨) .